

الشايقية

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف
و . نكولز

نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد حابري

الطبعة الاولى

الثمان ١٢ قرشا

الشَّائِقِيَّةُ

وصف لقبائل الشائقية وتاريخ مديرية دقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و . نكولز

نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

مقدمة المترجم

رأيت أن أقل هذا الكتاب الى قراء العربية ، وهو كتاب طبعه مؤلفه مستر فكلوز سنة ١٩١٣ ، وصار منذ ذلك الوقت مرجعا لكل من يبحث في قبائل الشايقية وتاريخها . وقد جمع المؤلف فيه الروايات الوطنية التي يرويها الشايقية أنفسهم ، وقارن بينها وبين أقوال المؤرخين والرحالة الذين زاروا بلاد الشايقية أو تحدثوا عنها . وقد تقبل بعض هذه الروايات ، وشك في بعضها . غير أنه مما يعيب الكتاب - في نظرنا - بعض أقوال جمع بها قلمه ، فأساء فيها الحكم أحيانا ، وأخطأته لباقة العبارة أحيانا أخرى . وقد علقنا على هذه الأقوال في مواضعها من هوامش الكتاب .

أضف الى ذلك أن الكتاب لم يتعرض لجوانب من تاريخ الشايقية كالبحث في أصل الشايقية ، وهذا موضوع شغل الذين كتبوا عن الشايقية بعد زمن تأليف هذا الكتاب . ونرى اتمااما للفائدة أن نعرض لأهم الآراء في ذلك الصدد . وبين أيدينا أربعة آراء في أصل الشايقية نلخصها فيما يلي :

١ - يرى ترمنجهام (الاسلام في السودان ص ٨٨) أنهم ربما كانوا أصلا من البجة . ويعتمد في هذا على ما رواه المقریزی عن ابن سليم الأسواني من أن الزنافج ، وهم فريق من البجة ، هاجروا في عصور قديمة الى بلاد النوبة واستقروا هناك . واحتفظوا بلغتهم الخاصة فلم تختلط بلغة النوبة . ثم لاحظ ترمنجهام أن جميع أسماء قبائل الشايقية تنتهي بالمقطع (آب) وهو مقطع لفظي مأخوذ من لغة البجة .

وزعم ترمينجهام هذا ، في نظرنا ، لا ينهض به دليل . فإن انتهاء اسم القبيلة بمقطع من لغة البجة ليس دليلا على أن القبيلة بجاوية الأصل . ولا سيما اذا عرفنا أن هذا المقطع يدخل في أسماء كثير من القبائل العربية التي تسكن في أقاليم مختلفة من السودان .

٢ - ويرى ماكمايكل (تاريخ العرب في السودان ح ١ ص ٢١٣ وما يليها) أنه من المحتمل أن يكون فريق من هذه القبيلة كان في الأصل من بقايا الجنود المرتزقة من الترك والألبان والبشناق الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس في بلاد النوبة منذ غزو السلطان سليم العثماني (١٥١٧ م) وقد استقر عدد منهم في النوبة .

وقد استبعد الباحثون اليوم هذا الرأي . فقد رده كراوفورد (في مملكة الفونج في سنار ص ٤٤) فذكر أن هنالك اعتراضا قويا ضد هذا الرأي ، وهو أن سليما العثماني لم يغز هذه المنطقة ولم يقيم عليها حراسا ولا حاميات . وأن المناطق التي قامت على حراستها فئات من هؤلاء ، وهي الواقعة بين الشلالين الأول والثالث ، لم تنتج سلالة من السكان عندها من الخصائص ما نجده عند الشايقية . ورد الدكتور عوض (السودان الشمالي ص ١٨٥) هذا الرأي بقوله : (مما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجناس حتى نستطيع بالدراسة العلمية للمقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه الشبه بين الشايقية وأولئك الجنود الذين اذا كانوا حقيقة لهم نسب ألباني أو تركي أو بشناق فإن هذا كفيلا يرفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايقية الجسدية ، كنحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الأنف فمعروف لدى كثير من العرب حتى في السودان نفسه) .

٣ - ويرى ثرنر (وهو رجالة ألماني زار السودان في خلال سنتي

١٨٤٠ ، ١٨٤١) أن الشايقية ربما كانوا في الأصل طبقة من محاربى المصريين القدماء أو جماعة من سلالة المحاربين النافرين الذين تحدث عنهم هيرودت المؤرخ فذكر أنهم كانوا جنودا فى جيش فرعون ثم ثاروا ورفضوا العودة الى مصر بعد أن هاجروا منها الى الجنوب . وكان هذا فى عهد أبسماتيك . وزعم هيرودوت أن عددهم كان مائتين وأربعين ألفا على وجه التقريب ، ويقول بلينيوس المؤرخ (٧٠ م) أنهم فروا من وجه أبسماتيك وسكنوا فى مناطق قريبة من مروي القديمة (راجع بحثا قدمناه للجمعية التاريخية السودانية بعنوان (ميلاد سوبا) المجلد الأول - الجزء الثانى من أعمال الجمعية) .

ويؤيد قرن هذه النظرية بعدة ملاحظات : (١) موقع بلاد الشايقية قريبا من مروي القديمة التى حموها من غارات برايرة الجنوب (٢) والنزعة العسكرية المتأصلة فى نفوس الشايقية . (٣) وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائما يعيشون أحرارا فى ظل ملوك صغار . ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة التى لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك اثيوبيا . فلما زال ملكهم صاروا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الاسكندر المقدونى بعد وفاته (٤) وعادة الشايقية فى تقصير شعر رأسهم وتلك عادة مصرية تخالف العادة السائدة عند العرب والنوبيين .

ويضيف ماكمايكل ملاحظة أخرى تؤيد نظرية قرن وهى (٥) ما شاهده الرحالة الفرنسى كايو من أن الشايقية فى اقليم الجزيرة يقيمون نصبا على صورة انسان يعين حدود الجهات التى غزوها . ويقول ماكمايكل ان هذه العادة بلا شك مقبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالا على حدود فتوحاتهم (عوض ١٨٤ ، ماكمايكل ١ : ٢١٣ وما يليها) .

٤ - وترى الروايات الوطنية التي يتداولها الشايقية أنفسهم أنهم من أصل عربي . وهذا الرأي لم يقم ضده دليل قوى الى الآن . فقد رأينا في الرأيين الأول والثاني ضعفا ظاهرا . أما الرأي الثالث (رأى الرجالة الألمانية قرن) فانتا لا ننكر ما فيه من وجهة ، وهو في الوقت نفسه لا يتنافى مع عروبة هذه القبيلة ، بل يؤيدها . فقد أشار قرن الى هذه الطبقة من المحاربين النافرين الذين هاجروا الى الجنوب من مصر القديمة . والعلماء مختلفون في أصل هذه الطبقة . وقد رجحنا في بحثنا « ميلاد سوبا » الذي أشرنا اليه فيما سبق ، أن هذه الطبقة كانوا من عرب الأراميين الذين كانوا يعملون في مصر جنودا مرتزقة في عهد بسماتيك الثاني وكانوا قد عهد اليهم في محاربة المناطق الجنوبية (ص ٢ - ٤) . وعلى هذا يكون رأى قرن في الواقع مؤيدا للروايات الوطنية الشايقية ، اذ تكون القبيلة في الأصل ، من هؤلاء العرب الذين هاجروا من مصر الفرعونية بعد أن استقروا فيها فترة من الزمن عملوا فيها في جيش فرعون .

فاذا وجدنا في عادات القبيلة آثارا مصرية ، فمن اليسير ردها الى تلك المؤثرات المصرية التي عملت في هؤلاء العرب في خلال اقامتهم في مصر . فلما هاجروا الى الجنوب حملوا معهم هذه المؤثرات . ولسنا ننكر مع ذلك أن مجاورة الشايقية لعناصر افريقية وحامية في موطنهم الجديد ، ودخول هجرات عربية جديدة بعد الاسلام في السودان واختلاط أصولهم بدماء عربية حديثة جاءت اليهم من الشمال أو الشرق - كل ذلك قد أحدث آثارا في عاداتهم ولغتهم على مر العصور ، ولكنهم فيما يظهر لم يسمحوا للسلالات الجنوبية بأن تمتزج بدمائهم ، لذلك احتفظوا بلون بشرتهم الذي يقرب من لون المولدين .

الخرطوم في نوفمبر ١٩٥٦

عبد المجيد عابدين

مقدمة المؤلف

كنت قصدت في بادئ الأمر الى تأليف بحث واف عن تاريخ السودان الشمالى من العصر المسيحى الى وقتنا هذا . وكان من برنامج هذا البحث أن يتألف من ثلاثة أقسام : الأول الممالك النوبية . الثانى : الفونج والشايقية . الثالث : السيطرة التركية .

ولكن الزمن الذى أتيج لى لم يكن كافيا لتنفيذ خطتى هذه . ولذلك عقدت النية على أن أحصر جهدى فى القسم الثانى من البحث الآلف الذكر . وكانت النتيجة هى هذا الكتيب الذى أرجو أن يحقق فائدة كافية فى تاريخ أشهر ركن من أركان السودان ، حتى يتسنى فى المستقبل القيام بأبحاث أخرى مستمدة من الروايات التاريخية المسجلة عن هذه المنطقة .

ولما كانت المخطوطات الوطنية قد أتلقت اتلافا يكاد يكون تاما فى أثناء ثورة الدراويش ، لم يكن بين يدى المؤرخ الا مادة يسيرة يستمد منها البحث ، والا أن يعتمد اعتمادا كبيرا على الملاحظات العابرة التى دونها الرحالة الذين زاروا هذه البلاد أو مروا قريبا منها .

والروايات الوطنية التى لا تؤيدها الوثائق التاريخية ، لا يمكن الاعتماد عليها ، فهى تتطلب من الباحث غربة وتمحيصا . وذلك بسبب تلك الخيلاء التى هى غريزة متأصلة فى أهالى السودان . *

* هذا حكم جائر على أهالى السودان . ولو أنصف الباحث لقال ان الروايات الوطنية بما فيها من مبالغات أحيانا موجودة عند كل الشعوب دون استثناء ، وأنها تؤلف مجموعة التراث القومى الذى يعتزون به ، ويتخذون منه مثلا عليا للبطولات بأنواعها . وإذا فرضنا ان شعبا قد خلا من الروايات الوطنية ، وهذا بعيد جدا ، فهو شعب لا مجد له ولا تراث . ولستنا بحاجة الى ان نذكر هذا المؤلف بأنه قد استغل فى بحثه هذا تلك الروايات التى يعيبها ويعيب أهلها (المترجم) .

فكل فرد مواطن ، مهما يكن أصله الذي ينتسب اليه ، يحاول أن
يثبت انه ينحدر من أشرف جماعة عربية ، وأن قبيلته التي ينتمى اليها
تتبوأ مكانة ممتازة ، وتلعب دورا كريما في تاريخ السودان .

وختاما أقدم شكرى الخالص للكاتبين أ . س . جاكسون ، والكابتن
ج . س . سايمس ، ومحمد بك السيد للمساعدة القيمة التي قدموها لى .

و . نكولز

الأبيض - كردفان ١٩١٣

الفصل الأول

« سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج »

تعد الشايقية من أهم قبائل السودان الشمالي من وجهة النظر التاريخية . وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالي ارتباطا وثيقا من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر . ولا يعزى هذا الارتباط الى الموقع الجغرافي وحده بل الى ما يتصف به أفرادها من نزعات حرية ، واقدام ، ومهارة واستبسال في الشؤون العسكرية .

والشايقية هم أبناء شايق بن حميدان^١ بن صبح أبو مريخة وهو الذى تزعم رواياتهم ، أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان . وهم ذوو قرابة وثيقة بقبائل الجميعاب والجوامعة وفروعها ، ويتصلون بالبديرية نوع اتصال وكلهم ينتمون الى المجموعة الجعلية .

وسيجد القارئ في الملحق الأول في آخر البحث ، جدولاً يوضح العلاقات بين القبائل التى تمثل جزءا من الهجرات العربية الكبرى التى أحدثتها القبائل العربية المهاجرة الى السودان من بلاد العرب من طريق البحر الأحمر فى غضون القرون : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . دخلت هذه القبائل السودان من طريق سواكن ومصوع ، واتجهت غربا وجنوبا صوب نهر النيل . وتمسك البدو منهم بحياة البداوة فتنقلوا فى البلاد الغنية الواقعة بين العظيرة والنيل الأزرق . أما القبائل الأكثر استقرارا فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتى النيل بين الشلالين

١ - الانساب التى حصلنا عليها تجمع على هذه النقطة .

الرابع والخامس حيث شغلوا حيزا فاصلا بين المملكتين المسيحتين في ذلك الحين ، مملكة علوة الجنوبية ، ومملكة مقرة الشمالية^٢ .

كانت هاتان المملكتان ، حين قامتا في بادىء أمرهما ، قوتين عزيزتي الجانب ، متحدتين . لذلك وقتما عتبة كأداء في سبيل الفتح الاسلامى للسودان . ولكنهما لم تلبث الخلافات الداخلية أن فتكت بوحدة كل منهما ، فانقسمت الى عدة طوائف صغيرة متعادية متنابهة ، وذلك يعزى الى الاهمال الذى عاتته كل منهما على يد الكنيسة الكبرى التى دانوا لها ، وهى كنيسة الاسكندرية ، فى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما يعزى الى انتشار الاسلام السريع .

ولهذا وقعت المملكتان فريسة سائغة فى أيدي العرب . وسرعان ما التأم روابط العرب فى هذه المنطقة ، بحكم صلات القربى التى تجمع بينهم ، وبحكم روابط الدين المشترك .

وفى نهاية القرن الخامس عشر انضوت هذه القبائل العربية المختلفة تحت لواء قائد واحد ، هو عبد الله جماع ، من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها .

وفى بداية القرن السادس عشر تحالفت القبائل العربية المتحدة بقيادة عبد الله جماع ، مع قبيلة الفونج الشبيهة بالزنج^٣ وكانت هذه القبيلة قد قدمت من الجنوب بقيادة ملكها عمارة دوتقس ، وصارت ذات قوة وتقوذ فى تلك المنطقة .

تكاثفت جهود هذه القبائل المتحالفة على غزو مملكة علوة المسيحية^٤ ،

٢ - راجع فى تاريخ معالك النوبة المسيحية كتاب كاترمير :

Memoires Historiques vol. ii

٣ - اورد ماكمايكل خلاصة للآراء المتعلقة بأصل الفونج فى كتابه (قبائل كردفان الشمالية والوسطى) .

٤ - كانت عاصمتها سوبه على النيل الازرق .

فغزوها وقضوا عليها * ووقعت حدودها ، من أربجي على النيل الأزرق الى جبال قيرى^٦ في أيدي العرب .

ففى العقد الأول من القرن السادس عشر ، استولى الفونج على كل البلاد الواقعة فى الجنوب بين النيل الأبيض وحدود الحبشة الى نهر الرهد . فى حين كان العرب الذين خضعوا للفونج سادة على منطقة وادى النيل الممتدة من نهر الرهد الى الشلال الرابع .

أما مملكة النوبة الشمالية ، فقد صارت فى ذلك الوقت فى مأزق حرج . فقد ظلت أعواما طويلا مشغولة فى حروب مستمرة وخصومات مع قبائل البجة فى الشرق ، والفور فى الغرب . ثم جاء الأتراك العثمانيون فغزوها بقيادة السلطان سليم الذى كان قد غزا كل المناطق الواقعة من أسوان الى شلالات حتك^٧ ، واحتلها جميعا .

وخرجت مملكة النوبة الشمالية من ذلك كله مضعضة قد أنهكتها المنازعات المستمرة ، وقسمها وأضعف شوكتها ذلك الصراع الداخلى الذى وقع بين أمرائها الكثيرين ، وبينهم وبين المسلمين حتى غزتها القبائل العربية المتحدة بقيادة مشايخ العبدلاب الذين كانوا يعملون لحساب سلطنة الفونج فى سنار .

وسقطت مملكة دنقلة ، وتهاوى معها آخر ما خلفته المسيحية فى السودان .

وأقبل أهالى هذه المملكة المنحلة على الاسلام ، وسمح لهم بالبقاء

٥ - هذا ما أورده مخطوطة تاريخ سنار (انظر الفصل الثانى) ولكن الاقرب ان انحلال الممالك المسيحية قد حدث ببطء وبالتدريج .

٦ - عند الشلال الخامس .

٧ - وهى الحدود الشمالية فى الوقت الحاضر لاقليم دنقلة ، أعنى الشلال الثالث .

في بقاعهم ، واندمجوا شيئا فشيئا في الغزاة حتى صار في الوقت الحاضر ، من أصعب الأمور أن يميز المرء بين النوبي والعربي .

أضف الى ذلك أنه ليس أحد من أهالي النوبة ، يعترف طواعية بأنه نوبي الأصل ، ولكنهم يتنافسون جميعا في الدعوى بأنهم ينتمون الى أشرف دماء في الحجاز ^٨ .

على أن عدد الذين بقوا في تلك البقاع كان كبيرا ولا سيما في الشطر الشمالي من المملكة ، ويدلنا على هذا أن العرب من الغزاة والمهاجرين قد اصطنعوا لغة النوبة ، وأن اللسان النوبي لا يزال حيا الى اليوم ، وأن ما يقرب من ثلثي مديرية دنقلة تخذون النوبية لغة عامة بينهم .

أما أولئك النوبيون الذين رفضوا أن يهجروا دينهم القديم ، فقد هربوا الى جبال كردفان ودارفور حيث ارتلوا سريعا الى حالتهم الأولى من الوثنية والتوحش ^٩ .

ولم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى كان وادي النيل كله من شلالات حنك الى نهر الرهد قد خضع لملك الفونج في سنار من طريق مشايخ العبدلاب في قرى .

في ذلك الوقت كانت مملكة دنقلة قد تضعضعت وانقسمت الى ثلاث دور رئيسية (جمع دار) ، وسميت على أسماء القبائل الكبرى التي سكنت

٨ - فمثلا سكان المحس النوبيون يزعمون أنهم من بنى امية .

٩ - يتكلم سكان عدد من جبال النوبا في كردفان لغة تختلف قليلا عن النوبية الدنقلوية . انظر لبيوس في كتابه بالامائية عن نحو اللغة النوبية (برلين ١٨٨٠) فقد اورد في المقدمة جداول للمقارنة بين اللغات المستعملة في جبال كارجو وكولداجي والنوبا وكلفان وبين اللغة الدنقلوية . وقد رايت مرة نوباويا من جبل ابو جنود وحدثته بالدنقلوية . . واستطعت ان اجعله يفهم منى نسبيا . وحصلت منه على مجموعة من الالفاظ وجدت انها تختلف اختلافا يسيرا جدا عن تلك المستعملة في دنقلة - ولما سألت هذا النوباوي عن أصله اجابني بأنه من نفس الاصل (واستعمل لفظ (لرج) ومعناها اصل او عرق) الذي ينتمى اليه الدنقله .

فيها . وكانت كل دار منها منقسمة الى عدة رياسات أو ممالك فرعية صغيرة كما يحلو لهم أن يسموها ، كل منها يرأسها أمير خاص أو ملك .

١ - فأولى هذه الجماعات ، في أقصى الشمال ، هي التي أسميها (دار الجوابرة) ١ - والجوابرة هم أكثر القبائل عددا هناك - وهي تمتد من شلالات حنك الى حلة التيتي ، وتتضمن ممالك أرجو ، وجزيرة مقاصر والخثاق .

وكان أهالي هذا الاقليم خليطا ، معظمهم من الجوابرة والنوبة مع

١ - انظر بر كهارت في (رحلات في بلاد النوبة) ص ١٣٣ ، ١٣٤ حيث يقول : « أما القبيلتان الجوابرة والغربية ، فان الأخيرة فرع من قبيلة الزناتية الكبرى : استوطنت البلاد الواقعة من اسوان الى وادي حلفا ، وكان من اثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد كبير كانوا قد استقروا على ضفتي النهر في زمن الغزو العام ، وكان من بينهم الكنوز وهي قبيلة من نجد والعراق . واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى (وكثير من سكان دنقلة (العرضي) الآن ينتمون الى هذه القبيلة - المؤلف) ضفاف النيل من اسنا الى اسوان . واستقر قليل من اسر الاشراف في بطن الحجر وفرض فرع من قرهش نفسه على المحس . وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون ، وظلوا في حروب مستمرة مع بعضهم بعضا : وفي اثنائها تمكن ملوك دنقلة من الظفر بنفوذ كبير عليهم حتى استطاعوا اخيرا أن يفرضوا عليهم الجزية .

» اما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريبا ، فأرسل الغربية رسلا الى القسطنطينية ، في عهد السلطان سليم ، وطلبوا مساعدتهم على اعدائهم ، ونجحوا في اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كوزي وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة واهالي دنقلة من بلاد النوبة ، الى دنقلة ، والى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقلة ينتمون الى الجوابرة . ومع ذلك بقي بعض اسر الجوابرة في مواطنها يعيشون في سلام ، ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون في معظمهم في الدر ووادي حلفا ، معروفين بأسماء أجدادهم « .

والمركز الرئيسي للجوابرة الآن في جزيرة بادين ، ويوجد عدد كبير في الزورات . حيث يوجد مختار أفندي عوض ممثلهم الاعلى ، ويوجد عدد أيضا في جزيرة سميت في المحس . ويطلق على الجوابرة في اللهجة النوبية اسم (جيركي) .

أثر من الكنوز ١١ والمهاجرين المصريين . وهناك أيضا قليل من العرب الذين ينتمون الى مجموعة البجة ١٢ الساكنة في الصحراء الى جهة الشرق . غير أن الأسرة الحاكمة في أرجو كانت من الحاكما ١٣ وهى قبيلة جعلية ، وأطلق على الملك الذى أقام في أرجو وفى بته (ملك الجزر) . وكانت عاصمته في أرجو ، وكان الى حد كبير أقوى حاكم في الشطر الشمالى من الاقليم ، يعترف له سائر الأمراء بالسيادة والزعامة .

٢ - « دار البديرية » ١٤ وتمتد من تيتى الى حدود دار الشايقية ، عند جبل النجر * ، وكان لها أمراء يحكمون في الخندق ودنقله العجوز

١١ - بنو كنز فرع من قبيلة ربعة العربية ، هاجروا من نجد والعراق في اواسط القرن التاسع واستوطنوا مصر العليا ، وتصاهروا مع الاهالى وصاروا ذوى قوة وصول في شئون الحرب . وفى أواخر القرن الثالث عشر غزا سلطان مصر سيف الدين قلاوون بلاد النوبة حتى بلغ دنقله . ويروى ان جموعا من بنى كنز قد صحبته في هذه الحملة . وفى القرن الرابع عشر هاجم بنو كنز مدينة أسوان ، وسيطروا عليها ، ولكن عرب الهوارة ردوهم مرة أخرى في بداية القرن الخامس عشر .

وللكنوز فروع أهمها النصر اللاب ، وابو هور والامنيلا ب الذين يقيمون في البلاد الواقعة بين أسوان والدر (انظر لين بول في تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٢٩ ، ٣٠٨ ، وانظر بر كهارة (رحلات في النوبة ص ٢٦) .

١٢ - وهم البشاريون الذين ينتمون الى اصل بجوى بالرغم من انهم يفتخرون بانتسابهم الى الكواهلة (ابن بطوطة في وصفه لرحلته الى ساحل البحر الاحمر) .

والبشاريون في دنقله في الوقت الحاضر يمثلون في قبيلة هاموك الذين يسكنون الصحراء الى شرق أرجو .

١٣ - انظر الملحق الاول .

١٤ - يقول بر كهارة في : رحلات في بلاد النوبة ص ٦٣ (بين مدينة دنقله ومروى يوجد واد للعرب يسمى بدير ، ورؤساؤه الى وقت قريب كانوا خاضعين للشايقية) .

* اسم هذا الجبل مختلف فيه بين الباحثين . وقد سماه بعضهم جبل الضيقة ، وهو جبل على الضفة الغربية (اليمنى) من النهر ، ويبدو أنه هو جبل ابن عوف .

وجزيرة تنقي وأبكور ودقّر . وكانت دقله العجوز أكبر ممالكهم
وكانت مبائر الممالك بمثابة امارات تابعة لها .

استوطن هذه البلاد البديرية والنوبة ، وسكنت مقاطعات كورتى
وأميجول قبيلة الطريفية التى تمت بصلة قرابة وثيقة الى البديرية
(أنظر الجدول فى الملحق الأول) .

٣ — وتمتد « دار الشايقية » على طول ضفتى النهر من جبل الدجر
الى نهاية مسقط الشلال الرابع ، وتشمل ممالك أربعة ، هى حنك ،
وكجى ، ومروى ، وعمرى .

والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية ، وقليل من النوبة يعيشون معهم
عيشة خضوع واذعان . وأهل دار الشايقية يختلفون عن أهالى سائر
الدور فى أنهم عندما يتهددهم عدو مشترك ، يهبون صفا واحدا لمحاربته ،
وقد طرحوا جانبا كل ما بينهم من أحقاد وخصومات ، وبأدروا جميعا
الى الانضواء تحت قيادة موحدة . هذا بالرغم من أن دارهم مقسمة
الى أربع ممالك منفصلة ، وأن ملوكها الأربعة ظلما تنازعوا فيما بينهم ،
ولكنهم حين يجد الجد كلمة واحدة . وهنا يكمن السر فى قوتهم . وقد
عجزت ممالك دقله الأخرى عن تأليف جبهة متحدة ضد أى عدو مشترك
فكانوا ينقسمون دائما على أنفسهم ، ولهذا فمنذ أن ظهروا الى حيز
الوجود كانوا دائما خاضعين لقوة أخرى أجنبية عنهم .

الفصل الثانى

ضعف نفوذ الفونج فى دنقله

فى غضون القرن السابع عشر أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان . والحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا فى خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة سنار وأن يتحدوا العبدلاب والفونج جميعا .

وحانت لحظة الثورة على بلاط سنار ، عندما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية فى سنار . ونستدل على ذلك بالفقرة الآتية التى اقتطفناها من مخطوط عربى كتبه لى المرحوم الشيخ ابراهيم الشريفى بعنوان (تاريخ السودان المختصر) : « وحكم (الملك بادی أبو دقن) ستة وثلاثين عاما ثم خلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر . وفى عهده ، فى سنة ١٠٩٥ هـ (١٦٨٤ م) وقعت مجاعة شديدة ، حتى أكل الناس لحم الكلاب وتعرف هذه السنة بسنة « أم لحم »^{١٥} . وقد هلكت جموع كبيرة من الناس وأمست البقاع الخصبة كلها صحارى جرداء ، بسبب المجاعة وانتشار الجدرى^{١٦} .

« وظل هذا الملك يحكم فى سنار حتى أدركه الوفاة سنة ١١٠٠ هـ وكانت مدة حكمه اثنتى عشرة سنة .

١٥ - هذه التسمية هى من قبيل تحسين المدلول بلفظ يدل على عكس ما يخشى منه ويتشاءم من ذكره . واللفظ هنا معناه السنة الكثيرة اللحم والخيرات !

١٦ - انظر الملحق ٣ .

« وخلفه ابنه الملك بادى الأحمر . وكان هذا أول ملك من ملوك
الفونج تخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه ، فثار عليه الشيخ الأمين
أرادب ودعجيب وسار اليه على رأس ألف رجل من الفونج وغيرهم
ونصبوا ملكا آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادى الأحمر » .
كان النير الذى وضعه « السلطان الأزرق » فى رقاب هؤلاء القوم
المحاربين المعتزين بأنفسهم أمرا ثقيلا على نفوسهم ، وقد وجدوا الآن
الفرصة سانحة للتخلص منه ، فقام بينهم بطل محرر يمثل فى شخص
عثمان ودحد العمرابى الذى استطاعوا على يده أن يحققوا ما كانوا
يصبون اليه . ووضعا دفعة واحدة حدا لهذه التبعية التى جعلت مركزهم
شاقا مهينا .

كان عثمان ابنا أمثل من أم مثلى . كانت أمه عديله * فارسة
شهيرة فى تاريخ الشايقية ، قد فاقت فى الفروسية وفنون القتال جميع
نظرائها من الرجال . تركب فى طليعة الجيش حين يتقدم الى ميدان النزال .
وتخوض قلب المعركة حين يحتدم القتال .

وكان وجودها مع المحاربين ، وبساتنها فى الحرب ، أكبر مشجع لهم
على الاستماتة فى القتال ، ولقد أحرزت لقبيلتها كثيرا من المعارك التى
كان النضال فيها شديدا عنيفا .

يزعم البعض أن عديلة قد سنت للشايقية سنة جديدة ، وهى ما رواه
الرحالون كايو ووادنجتون وهابرى ^{١٧} عن موقعة كورتى من أن
الشايقية من عاداتهم أن يجعلوا امرأة تركب فى طليعة الجيش ، لتحرضهم
على القتال ، وتعطى لهم الإشارة ببداية المعركة . ولكننى أظن أن هذه
العادة ترجع الى أصول أقدم من هذا .

* يكتبها المؤلف عازلة أو عزيلة .

١٧ - فى (رحلة الى مروي) للرحالة كايو ، وفى الرحلات التى كتبها
وادنجتون وهابرى .

وكانت عديلة هي التي حرّضت عثمان على إيواء أحد الهاربين من وجه الشيخ الأمين ود عجيب زعيم العبدلاب . وكان هذا اللاجئ الهارب قد فقد ثقة الشيخ الأمين وخشى بطشه وسطوته . وقد أوغر هذا صدر الشيخ ، وكانت عديلة بذلك التحريض هي السبب في اشعال نار الحرب التي أدت الى استقلال الشايقة .

فعندما بلغ ود عجيب أن هذا الهارب قد اتخذ من عثمان ملجأ ، أرسل الى عثمان رسولا يخبره بين أمرين : إما أن يقتل الهارب أو أن يسلمه اليه فوراً . وقد أجاب عثمان على رسالة الشيخ الأمين بجواب ينطوي على اهانة ، اذ رفض أن يقتل اللاجئ وأخبر ود عجيب بأنه اذا كان يريد هذا اللاجئ فليحضر بنفسه ليأخذه ان استطاع . وأيقن عثمان بالعواقب التي لا مفر من حدوثها والتي تترتب على هذا التحدي ، فرجع الى جزيرة دلقه^{١٨} وتهايا للقتال .

ولم يتوان الشيخ ود عجيب في تجهيز جيشه ، فعسكر على شاطئ النيل أمام دلقه وأرسل الى الشيخ عثمان بالتسليم في مدة لا تزيد على خمسة أيام .

كانت القوة التي تحت امرة عثمان قليلة جداً ، فجعل يعرض خيله للشمس طوال اليوم ، ويعلفها علفاً جافاً ، ويصنع جلودها كل يوم بلون مختلف من ألوان الأتربة والكلس ، ثم يرسلها لتشرب من النيل في وقت الغروب فتراعى للعدو أسراباً مختلفة من الخيل . وبهذه الحيلة خدع ود عجيب ، وأوهمه أن لديه من القوة خمسة أضعاف ما كانت عليه في حقيقة الأمر . ففزع ود عجيب فزعاً شديداً ، حتى انه في اليوم السادس ، الذي كان مقرراً أن يحمل ود عجيب فيه على جيش عثمان ، أرسل الى

١٨ - دلقه جزيرة جنوبي بلدة مروى على مسافة تقرب من ستة وخمسين ميلاً على خط العرض ١٨ ر ٥٣ .

عثمان لمفاوضته . وخشى عثمان أن يفدر ود عجيب بجيشه ، فعبر اليه بمفرده ، من طرف الجزيرة ، بعيدا عن مرأى معسكر العبدلاب ، ومضى حتى وصل الى الشيخ ود عجيب وهو راكب جواده ، ولم يكن ود عجيب يتوقع هذا الصنيع من عثمان . وكان ود عجيب حينئذ جالسا على الأرض يلعب (المتقلة) مع أتباعه ، (وهى نوع من لعبة الضامة) .

فلما نزل عثمان عن ظهر جواده عثرت قدمه بركاب السرج فبادر ود عجيب الى أحد أتباعه ، وأسرَّ اليه قائلا : « ان الله سلمه الى أيدينا . فأسرع اليه واقتله » .

ولكن شايقيا من أصدقاء عثمان ، كان يجلس فى مجلس ود عجيب ، وسمع ما قاله هذا ، فصرخ قائلا باللهجة الشايقية : « وحياء الرب شريك أم حبيبة فى رقيبك طبة » ومعناها « أفلح بنفسك قبل أن يقع فخ الطير فى رقبته » . ولم يفهم العبدلاب ما قال الشايقى ، ولكن فهمه عثمان ، وسرعان ما قفز على صهوة جواده ومضى به مسرعا الى ضفة النهر ، وانطلق الى النهر فشق عبابه ، هو والجواد ، حتى بلغ دلقه .

ولم يكن بد من أن يعمل عثمان للقضاء على جيش العبدلاب فى وقت سريع ، فدعا رجاله جميعا ، فجمعوا دوابهم ومعيزهم وماشييتهم ، وكل ما عثروا عليه من القش والحطب .

فلما غربت الشمس ، عبر هو وجنوده وما معهم من الحيوان الى شاطئ النيل بعيدا عن مرأى معسكر ود عجيب .

وجمعوا حيوانهم ، وربطوا على ظهر كل منها حزمة من القش والحطب . وفى منتصف الليل ، عندما كان ود عجيب وجنوده نائمين ، سبقت هذه القطعان الكبيرة من الحيوان الى مكان قريب من معسكر الأعداء . وأشعلت النيران فى القش والحطب ، فانطلقت القطعان مجفلة

جُباة قساة يأخذون من الأهالي ثلث محصولهم ضريبة لهم .
وقد امتد سلطانهم من حدود المحس الى حلة الخندق في حين كانت
هقية المديرية في أيدي الشايقية .

كانت غارات الشايقية الذين مروا على النهب والسلب تساور
منطقة الممالك فأحفظهم ذلك وعقدوا النية على مهاجمتهم ، فسيروا حملة
في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة الى دار الشايقية . وبينما هذه الحملة
تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد عبروا الصحراء من مروي بطريق
« محيلة » ، وهاجموا أرجو واستولوا عليها وأوقعوا خسائر بالغة في ما
خلفه الممالك من أمتعة وممتلكات في مراغة .

وعندما بلغ جيش الممالك خبر اغارة الشايقية على منطقتهم ،
انقسموا الى فرقتين ، فرقة كانت تحت امرة ابراهيم بك ، رجعت الى
مراغه ، لتقاوم المغيرين من الشايقية في حين تقدمت الفرقة الأخرى
بقيادة عبد الرحمن بك الى دار الشايقية بجذاء الضفة اليسرى من نهر
النيل . ونشبت معركة في حلة « حتانى » بالقرب من جبل « تماكه » وهي
لم تكن فيما يقال معركة فاصلة ^{٣١} . وقد عاد الممالك بعدها الى مراغة .
وسواء أكانت المعركة غير فاصلة أو فاصلة ، فإن تأثيرها في الشايقية ،
كان مشمرا ، اذ لم تلبث اغاراتهم على منطقة الممالك أن توقفت تماما ،
وبذلك استطاع الممالك أن ينصرفوا في حرية الى بذل نشاطهم في
تحسين البلاد التي استولوا عليها .

٣١ - أخبر الملك طنبل ملك أرجو الرحالة وادنجتون أن الممالك هزموا
الشايقية في كريج وقتلوا منهم ١٥٠ شخصا . ثم ذكر طنبل أنه كان في
الحملة وأن النصر كان باهرا الى اقصى حد (راجع الرحلات ص ٢٢٨) .
وهذا غير محتمل الى حد كبير ، واخشى أن يكون الملك قد اخذته نشوة
التمجيد فانسته الحقيقة .

الفصل الخامس

الغزو التركي

في سنة ١٨٢٠ تحولت الأحداث الجارية الى وجهة مختلفة . فمما يروى أن محمد علي كان يطمح الى الاستيلاء على جميع شواطئ النيل وجزره ، والى السيطرة على كل الذين يشربون من ماء النيل من بلاد الحبشة الى البحر الأبيض المتوسط .

ففى ربيع ١٨٢٠ عقد النية على السعى في تحقيق مظاهره هذه ، ولذلك جهز حملة تتألف من عشرة آلاف مقاتل مزودين بأنتى عشرة قطعة من المدافع لإخضاع القبائل التى تسكن وادى النيل . وجعل قيادة جيشه لابنه الأصغر اسماعيل باشا الذى بلغ من العمر في ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة .

غادرت الحملة القاهرة في مستهل الصيف ، وكان ممالك مراغة آتذ قد قص عددهم بتأثير الحروب والحمى حتى بلغ - على حد تقدير كايو - ثمانين رجلا . فما أن سمعوا بحملة القاهرة ، حتى جمعوا في شهر يونيو بقاياهم ، ومعهم عبيدهم المسلحون ، ونقضوا عن أقدامهم غبار مراغة ، وخرجوا يقصدون الى شندى فاخترقوا من بلدة كورتى صحراء بيوضة .

ولما علم الشايقية بخبر رحيلهم ، دبروا لهم كميناً بالقرب من كورتى ليقطع عليهم الطريق مباغته ، ولكن الممالك كانوا أحرص منهم ، فتنهبوا الى صنع الشايقية ، وفاجأوهم في مكانهم ، وأسروا منهم عددا كبيرا ، وقتلوا هؤلاء الأسرى على الفور ثم مضوا في طريقهم الى شندى^{٢٢} .

ولم يكد الممالك يغادرون منطقتهم ، حتى بادر الشايقية الى مباغته البلاد التي كان الممالك قد استولوا عليها ، وجعلوا يعملون فيها واحراقا وتخريبا ، وأسروا عددا من السكان ، وحملوهم الى دار الشايقية لكي يزرعوا الأراضي ، ويساعدوهم على قتال الأتراك . ولم يكفوا عن ذلك ويرجعوا الى دارهم الا عندما وصل جيش اسماعيل باشا .

وصل الممالك الى شندى ، وعسكروا خارج المدينة . وظلوا الى أن أمرهم مك شندى ، وكان قد سمع بانتصارات اسماعيل باشا على الشايقية ، أن يرحلوا عن بلاده ^{٢٣} . فحينئذ تشتت شملهم ، وفريق اتجه الى دارفور ، وفريق الى البحر الأحمر ، وقليل منهم آثر العودة الى مصر من طريق الصحراء النوية ، حيث يقال ان قبائل اليشاريين قتلوهم في الطريق .

ومنذ ذلك الحين انزوى الممالك عن التاريخ ، ولم نسمع عنهم شيئا . أما حملة اسماعيل باشا ، فقد كانت مجهزة بعشرة آلاف رجل ، معظمهم من الأتراك والألبان والمغاربة بقيادة غلبدين كاشف وحسن دار وسلحدار وعمر كاشف ، ومعهم ١٥٠٠ من البدو بخيلهم وجمالهم يقودهم خوجه أحمد ، وقد لحق به عند أسوان حشد كبير من عرب العبادنة ^{٢٤} .

مضى اسماعيل وجيشه في طريقهم دون أن يعترض سبيلهم أحد حتى بلغوا دقلة الجديدة (العرضى) . كان أقوى ملوك الشايقية في ذلك الحين ، الملك شائوس (ويحرف اسمه أحيانا فيسمى شاويش) ، ملك العدلاناب ، وكانت عاصمتهم في

٢٣ - وادنجتون وهانبرى ص ٢٣١

٢٤ - نفس المرجع ص ٩٢ .

مروى ، والملك صير ملك الحنكاب وكانت عاصمتهم حنك .
وكان هناك ملكان آخران أقل شأنا ، هما الملك مدني ملك كجبي ،
والملك حمد ملك العنصراب . فلما اقترب الأتراك من بلادهم ، تكتل
الشايقية جميعا ، تحت إمرة شائوس وصير وكان الأول قائدهم .
يقول وادنجتون : « عندما وصل الباشا التركي الى دنقلة ، أصدر
أوامره الى الشايقية بأن يعلنوا الخضوع لسلطان محمد علي ، فأبدوا
اليه الرغبة في أن ينصرفوا الى زراعتهم وأن يدفعوا له الجزية . فطلب
الباشا أن يثبتوا له حسن نيتهم ، بأن يرسلوا اليه أسلحتهم وخيولهم ،
فأعادوا عليه قولتهم الأولى . فأجابهم الباشا بأن أباه قد أمره أن ينشئ
منهم شعبا من الفلاحين لا شعبا من المحاربين ، وطلب اليهم مرة أخرى
أن يسلموه الأسلحة والخيول .

حينئذ أجابوه في تحد قائلين : « اما أن تذهب لحال سييلك أو تأتي
فتحاربنا » فسير الباشا جنوده الى حدود بلادهم .
كان أول دماء سفكت في حلة سلقى حيث قتل الشايقية خمسة من
العساكر الألبانيين .

وبدأت المعركة بمناوشة وقعت قريبا من دنقلة العجوز حيث باغت
فريق من الشايقية الخيالة اسماعيل باشا ، وبعض ضباطه ، وقليل من
الجنود ، الذين كانوا قد انفصلوا عن الجيش الرئيسي . ومع ذلك
استطاعوا أن يصدوا الشايقية دون عناء .

واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن
يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريبا من كورتى . وهنا يروى كايو نقلا عن
عابدين كاشف ثاني قواد الجيش التركي ، أن الشايقية قد مزقوا طليعة
استكشافية تتألف من مائة من فرسان البدو ، فقتلوا منهم سبعين ،
وجرحوا عشرين . وفي هذه البقعة تجمع الجيش الرئيسي للشايقية لصد
الغزاة .

كانت مهمتهم أن يجبوا من كل أمير نصف إيراده ٢٣ ، وأخذت جموع من فرسان الشايقية ، يطوفون البلاد من كورتى الى حنك بقصد الاغارة والسلب ، فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفرع في نفوس الأهالى . وكان من جراء ذلك التخريب الذى أحدثته هذه الجموع أن هاجرت جماعات هائلة من السكان الى كردفان ودارفور وبربر .

وقد وجد براون الذى زار دارفور في الفترة التى بين ١٧٩٢ ، ١٧٩٨ ، جالية كبيرة من أهالى دقلة في « حلة حسن » بالقرب من القبة ، وفي القبة أيضا . يقول براون : « معظم تجار القبة يقدون من نهر النيل ، والظاهر أنهم هم أول من اكتشفوا الطريق المباشرة التى تصل بين مصر ودارفور . فعند سنوات عديدة ، كانت بلادهم التى نزحوا منها ، في دقلة والمحس وحدود النيل كلها الى سنار ، وهى بلاد - فيما يروى - أفضل من دارفور في جميع الميزات الطبيعية - كانت مسرحا للتدمير وسفك الدماء ، فلم يكن فيها حكومة مستقرة ، وكانت الانقسامات الداخلية - على الدوام - تعمل على تمزيقها ، وغارات الشايقية وسائر القبائل القاطنة بين النهر والبحر الأحمر تلقى الرعب في نفوس الناس » . وهناك جالية كبيرة من قبيلة الطريفية نزحت من كورتى وأمبيجول وهى الآن تقطن في القبة . كما أن هنالك جماعة صغيرة في قرى (مديرية الخرطوم) . وفي كردفان كذلك كثير من البديرية والدناقلة وكان عدوان الشايقية قد أجلاهم عن دقلة .

٢٢ - يقول بركهارت في رحلات في النوبة ص ٧١ : وكان عسرب الشايقية ، منذ أن كان لهم نصيب من الإيراد ، يأخذون عن الارض التى ترونها السواقي ، أربعة (موريات) من الذرة عن كل ساقية ، ورأسين او ثلاثة من الاغنام ، وثوبا من الكتان قيمته دولاران . وكان الملوك الوطنيون يأخذون كذلك مثل هذا المقدار .

ملاحظة : الموريات التى وردت في نص بركهارت جمع مورى وهو من المكاييل القديمة يساوى حوالى ثلاث كيلات (المترجم) .

ويروى كايو ^{٢٤} أن حملة اسماعيل باشا ، حين بلغت مديرية بربر ، وجدت أربعمئة أسرة كانت قد لاذت بالفرار من دقطة بسبب تعدى الشايقية عليهم .

والظاهر أن الملك الوحيد من ملوك دقطة الذي قاوم الشايقية هو ملك أرجو ، فقد عبأ جيشا كثير العدد من الجنود المغاربة ، وسار به الى حدود دار الشايقيه .

ونشب معركة عنيفة عند قاعدة جبل دجر ، وانهزمت جيوش ملك أرجو وقتل منها خلق كثير . وعلى أثر ذلك اشتد نفوذ الشايقية في دقطة . وفي أثناء النصف الأخير من القرن الثامن عشر كانت دولة الفونج تنهار انهيارا حثيثا .

وأقلت العبدلاب من ربة الفونج فلم يجدوا أمامهم سوى الشايقية يثيرون في نفوسهم الذعر والفرع ، اذ قامت عصائب الشايقية من الفرسان ، بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من نهر النيل حتى واجهوا حلفاية . بل هاجموا حلفاية ، ودحروا العبدلاب ^{٢٥} .

ويحكى كايو ^{٢٦} أن أهالي حلفاية ، قبل وقوع غارات الشايقية ، كان عددهم تسعة آلاف ، وبعد وقوعها قل هذا العدد حتى كان في سنة ١٨٢٢ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف .

ويقول بركهارت ^{٢٧} : « قبل أن يصل الماليك الي دقطة (سنة ١٨١١) ، كان الملك نمر (ملك شندى) في حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيرا من أقربائه في المعارك ، كما أنهم

٢٤ - رحلة الى مروي : المجلد الثاني .

٢٥ - وتنفق الروايات التي يذكرها العبدلاب والشايقية في هذه النقطة .

٢٦ - رحلة الى مروي : المجلد الثاني ص ١٩٤ .

٢٧ - رحلات في النوبة ص ٢٤٨ .

دعوا الى أن يؤدوا بأنفسهم هذه الأعمال التي تعودوا أن ينظروا اليها على أنها أليق بالعبيد والخدم . وصاروا لا يتوقعون من أحد معاملة أحسن مما كانوا قد تعودوا عليه من قبل . لقد قضى عليهم أن ينحدروا الى العبودية دفعة واحدة ، بعد أن كانوا ، ليسوا أحرارا فحسب ، بل طغاة جبارين كذلك .

ويقول كايو ان معظم المشاة في جيش الشايقية كانوا سكارى * ، وأن كثيرا منهم كانوا يلقون بأنفسهم ، في تهور واندفاع ، على بنادق الجنود الأتراك ، وقد حملوا في أيديهم أوعية الشراب المسكر ، وبدت على وجوههم علامات السرور كأنهم يشتركون في احتفال أو عيد . وذكر وادنجتون أن خسائر الأتراك قد أسفرت عن جرح ضابط واحد وستة عشر جنديا . وهذا قد يصدق على الأتراك أنفسهم ، أما عن حلفائهم من البدو والمغاربة فلا بد أن الخسائر بينهم كانت فادحة ، إذ أنهم هم الذين تحملوا معمعان القتال في هجوم الشايقية . وقد قدر كايو عدد القتلى ثلاثين والجرحى ثمانين وربما كان هذا أقرب الى الصحة . بعد انتهاء المعركة ، استسلمت قرى البلاد المحيطة ، للخراب والحرائق ، وارتكب الغزاة صنوفا مروعة من الوحشية والفظاعة ضد الأعداء الذين كانوا قد قاوموهم في شجاعة وبسالة .

وأعلن اسماعيل باشا عن مكافأة قدرها خمسون جنيها لكل من يحضر له أذنين لأي شايقي قتل في الحرب ، حتى يرسل ما يجمعه من الآن المصلحة الى والده محمد على شاهدا على نجاحه الباهر .

وكان من أثر ذلك أن أصبح لا يقف الأمر عند تسليم آذان الذين قتلوا وجرحوا في ساحة القتال ، بل تعدى الى هؤلاء الأبرياء الذين لم يشتركوا

* هل هذا صحيح . فكيف يتفق هذا الكلام مع اقوال الرحالة الآخرين الذين لم يشيروا الى هذه المسألة (المترجم) .

في المعركة ، ولم يلتمسوا ذلك في الرجال وحدهم بل في النساء كذلك .
والذين قاوموا منهم ، كانوا اذا لم يقتلوا فوراً ، تشوه أجسامهم بصورة
منزعة ، أما القتلى والجرحى فقد تركوا راقدين حيث كانوا ، تنهشهم
سباع الطير وتتخذهم طعاما لها .

وفيما يلي نورد فقرة من كلام كايو ، وهي تلقي ضوءاً قاتماً على
ما حدث بعد انتصار الأتراك :

« هرب بعض الشايقية الى أوطانهم ، فأنين أن أعداءهم سيقبضون
على الرجال العزل - ولكن أملهم كان سراباً ، فقد انتشرت الجنود
الثائرة الهائلة كالسيل الجارف ، تجلب معها ، حيث حلت ، الحرائق
والسرقات والمذابح . وحاول الباشا أن يضع حداً لتعدى هؤلاء المجانين
ولكن في غير طائل ، ولا غرو أن كان الباشا مسئولاً عن ذلك ، فهو الذي
دفعهم أول الأمر الى التمادي في ذلك ، حين أعلن لهم عن مكافأته لكل
من يأتي بأذن الشايقية مصلمة . فاذا كان بعض الأتراك قد دفعتهم
مشاعر انسانية ، فوهبوا الحياة لأحد من هؤلاء التاعسين العائري الحظ ،
فلم تبلغ بهم الأريحية قط الى الحد الذي جعلهم يدعون الأذنين ملكاً
لصاحبها . فقد سمعت رجلاً يونانياً ، كان طبيب الباشا ، يفتخر بأنه أهدي
الى أحد الجنود أذن فتاة كان قد وجدها مختبئة في حقل من الذرة ،
ويعلن أنه أبقي على حياتها لأنه شعر نحوها بعاطفة ، وأنه ما كان يشعر
بمثل هذه العاطفة ازاء النساء الأخر اللائي يكبرنها سناً ، ولذلك كان
يذبحهن دون تردد » .

ويؤيد جيوفاني فيناتي * الذي صحب الحملة ، ما رواه كايو من

* جندي إيطالي التحق بالجيش التركي وكان من بين المستشارين الذين
استعان بهم الباشا التركي في تنظيم جيشه . وكان في حاشية إبراهيم باشا
حين زار سنار وفازوغلي ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ،
واعتنق الاسلام وسمى نفسه الحاج محمد (المترجم) .

ملاحظاته ، تأييدا كاملا .

ان الغيظ الذي ملأ نفوس الجنود الأتراك ، لما وجدوه من أعدائهم من المقاومة في شجاعة وبسالة ، ولتعطشهم الى التخریب ، وطمعهم في المكافأة ، قد ساقهم الى الغلو المفزع في التعدي وانتهاك الحرمات .

لذلك لا غرابة في أن لا يقنعوا باتتصار واحد ، وأن يتعادوا ، وهم يحسون بروح معنوية عالية ، في النيل من خصومهم بكل الوسائل الممكنة . وكانت كل الدلائل تنطق في وضوح وجلاء بهذه الحقيقة . يقول كايو : « فان نصف الأهالي الذين التقينا بهم ، وكثير منهم من النساء ، كانوا محرومين اما من احدى الأذنين أو من كليهما ، وكان آخرون منهم قد قطعت أطرافهم . أضف الى ذلك أننا التقينا في طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران » . فالواقع أن الاضطهاد الذي حدث ، كان يقصد فيما يبدو الى الابادة والاقناء . فالمنطقة كلها قد خربت ، وبذلك استحال - في وقتها على الأقل - الى اذعان مكتب عابس .

فبعد موقعة كورتى خضع واحد أو اثنان من صغار المشايخ الذين حكموا على الضفة اليسرى من النهر ، أما سائر الشايقة وجيوشهم فقد عبروا النهر بزعامة الملك شاؤس واجتمعوا عند جبل دجر حيث قرروا القيام بمحاولة عنيفة في سبيل الحرية . قام الجيش التركى ، مصحوبا بأسطول يتألف من حوالى ١٥٠ سفينة ، فعبر الى الضفة اليمنى من كورتى وتقدم تجاه جبل دجر . وكان ذلك في الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٨٢٠ .

واصطفت جنود شاؤس على منحدرات التل ، تحميمهم قصور شاؤس وتحصيناته ، التى وصفها شاهد عيان بأنها كانت تلقى ظللا مظلمة على جانب التل .

كان الموقع الذي اختاره شاؤس مناسباً الى أقصى حد ، ولو لم يكن هنالك فارق بين الجيشين في نوع الأسلحة المستخدمة ، لكان من الجائز أن يضمن هذا الموقع لجنود شاؤس نصراً محققاً .

ولكن الجموع من سكان القرى الذين ساقهم شاؤس الى الميدان أو أغراهم بالاشتراك في الحرب ، لم يكونوا يمتلكون الا الأسلحة والرماح والدروع والسيوف ذوات الحديد . وكانوا في مقدمة الجيش قد تصدوا لرصاص الأتراك يتلقونه ويستنزفونه ، دون أن يقدموا على أية مقاومة ايجابية في لحظة الهجوم .

أقام الباشا جيشه في مواجهة الأعداء ، ووضع القسم الأكبر من خيالاته قبالة الأرض المكشوفة بين الجبل والنهر ، ودفع بمدفعيته قليلاً الى الأمام .

واندفع الأهالي المحاربون الى الأمام وقد رفعوا أصواتهم بصيحات عالية ، ولوحوا برماحهم ، وألقى المشاة بأنفسهم على المدفع ، وما كان في أيديهم سوى الأسلحة التي أشرفا اليها ، فنسفوا نسفاً .

يقول انجليش ، أحد الضباط الأمريكيين ، وكان قد حارب في المدفعية التركية : « كانت الشجاعة المستميتة التي اتصف بها هؤلاء القرويون التعساء ، تبعث على الدهش . فقد تقدموا أكثر من مرة تجاه فوهات المدافع ، وجرحوا بعض رجال المدفعية وهم يقومون بحشوها بالرصاص . ولكنهم بعد أن أحسوا بآثار قليل من الطلقات النارية ، التي مزقت الخيل والناس أشلاء ، هربوا مذعورين ، تاركين عساكر المشاة وقد داسوهم ، وأخذ فرساننا يقذفونهم بالسيوف يصبونها الى أسفل حتى قتلوا مئات كثيرة منهم وهم يهتون بالفرار .

«وحين أقول : يصبونها الى أسفل ، فذلك لأن السيف الذي استعمله خيالتنا لم يكن يجدى قليلاً ، فقد كان هؤلاء الأعداء من الحنق

جُباة قساة يأخذون من الأهالي ثلث محصولهم ضريبة لهم .
وقد امتد سلطانهم من حدود المحس الى حلة الخندق في حين كانت
هقية المديرية في أيدي الشايقية .

كانت غارات الشايقية الذين مروا على النهب والسلب تساور
منطقة المماليك فأحفظهم ذلك وعقدوا النية على مهاجمتهم ، فسيروا حملة
في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة الى دار الشايقية . وبينما هذه الحملة
تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد عبروا الصحراء من مروي بطريق
« محيلة » ، وهاجموا أرجو واستولوا عليها وأوقعوا خسائر بالغة في ما
خلفه المماليك من أمتعة وممتلكات في مراغة .

وعندما بلغ جيش المماليك خبر اغارة الشايقية على منطقتهم ،
انقسموا الى فرقتين ، فرقة كانت تحت امرة ابراهيم بك ، رجعت الى
مراغه ، لتقاوم المغيرين من الشايقية في حين تقدمت الفرقة الأخرى
بقيادة عبد الرحمن بك الى دار الشايقية بجذاء الضفة اليسرى من نهر
النيل . ونشبت معركة في حلة « حتانى » بالقرب من جبل « تماكه » وهي
لم تكن فيما يقال معركة فاصلة ^{٣١} . وقد عاد المماليك بعدها الى مراغة .
وسواء أكانت المعركة غير فاصلة أو فاصلة ، فإن تأثيرها في الشايقية ،
كان مشمرا ، اذ لم تلبث اغاراتهم على منطقة المماليك أن توقفت تماما ،
وبذلك استطاع المماليك أن ينصرفوا في حرية الى بذل نشاطهم في
تحسين البلاد التي استولوا عليها .

٣١ - أخبر الملك طنبل ملك أرجو الرحالة وادنجتون أن المماليك هزموا
الشايقية في كريج وقتلوا منهم ١٥٠ شخصا . ثم ذكر طنبل أنه كان في
الحملة وأن النصر كان باهرا الى اقصى حد (راجع الرحلات ص ٢٢٨) .
وهذا غير محتمل الى حد كبير ، واخشى أن يكون الملك قد اخذته نشوة
التمجيد فانسته الحقيقة .

الفصل الخامس

الغزو التركي

في سنة ١٨٢٠ تحولت الأحداث الجارية الى وجهة مختلفة . فمما يروى أن محمد علي كان يطمح الى الاستيلاء على جميع شواطئ النيل وجزره ، والى السيطرة على كل الذين يشربون من ماء النيل من بلاد الحبشة الى البحر الأبيض المتوسط .

ففى ربيع ١٨٢٠ عقد النية على السعى في تحقيق مظاهره هذه ، ولذلك جهز حملة تتألف من عشرة آلاف مقاتل مزودين بأنتى عشرة قطعة من المدافع لإخضاع القبائل التى تسكن وادى النيل . وجعل قيادة جيشه لابنه الأصغر اسماعيل باشا الذى بلغ من العمر في ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة .

غادرت الحملة القاهرة في مستهل الصيف ، وكان ممالك مراغة آتذ قد قص عددهم بتأثير الحروب والحمى حتى بلغ - على حد تقدير كايو - ثمانين رجلا . فما أن سمعوا بحملة القاهرة ، حتى جمعوا في شهر يونيو بقاياهم ، ومعهم عبيدهم المسلحون ، ونقضوا عن أقدامهم غبار مراغة ، وخرجوا يقصدون الى شندى فاخترقوا من بلدة كورتى صحراء بيوضة .

ولما علم الشايقية بخبر رحيلهم ، دبروا لهم كميناً بالقرب من كورتى ليقطع عليهم الطريق مباغته ، ولكن الممالك كانوا أحرص منهم ، فتنهبوا الى صنع الشايقية ، وفاجأوهم في مكانهم ، وأسروا منهم عددا كبيرا ، وقتلوا هؤلاء الأسرى على الفور ثم مضوا في طريقهم الى شندى^{٢٢} .

ولم يكد الممالك يغادرون منطقتهم ، حتى بادر الشايقية الى مباغطة البلاد التي كان الممالك قد استولوا عليها ، وجعلوا يعملون فيها واحراقا وتخريبا ، وأسروا عددا من السكان ، وحملوهم الى دار الشايقية لكي يزرعوا الأراضي ، ويساعدوهم على قتال الأتراك . ولم يكفوا عن ذلك ويرجعوا الى دارهم الا عندما وصل جيش اسماعيل باشا .

وصل الممالك الى شندى ، وعسكروا خارج المدينة . وظلوا الى أن أمرهم مك شندى ، وكان قد سمع بانتصارات اسماعيل باشا على الشايقية ، أن يرحلوا عن بلاده ^{٢٣} . فحينئذ تشتت شملهم ، وفريق اتجه الى دارفور ، وفريق الى البحر الأحمر ، وقليل منهم آثر العودة الى مصر من طريق الصحراء النوية ، حيث يقال ان قبائل اليشاريين قتلوهم في الطريق .

ومنذ ذلك الحين انزوى الممالك عن التاريخ ، ولم نسمع عنهم شيئا . أما حملة اسماعيل باشا ، فقد كانت مجهزة بعشرة آلاف رجل ، معظمهم من الأتراك والألبان والمغاربة بقيادة غلبدين كاشف وحسن دار وسلحدار وعمر كاشف ، ومعهم ١٥٠٠ من البدو بخيلهم وجمالهم يقودهم خوجه أحمد ، وقد لحق به عند أسوان حشد كبير من عرب العبادنة ^{٢٤} .

مضى اسماعيل وجيشه في طريقهم دون أن يعترض سبيلهم أحد حتى بلغوا دقلة الجديدة (العرضى) . كان أقوى ملوك الشايقية في ذلك الحين ، الملك شائوس (ويحرف اسمه أحيانا فيسمى شاويش) ، ملك العدلاناب ، وكانت عاصمتهم في

٢٣ - وادنجتون وهانبرى ص ٢٣١

٢٤ - نفس المرجع ص ٩٢

مروى ، والملك صير ملك الحنكاب وكانت عاصمتهم حنك .
وكان هناك ملكان آخران أقل شأنا ، هما الملك مدنى ملك كجى ،
والملك حمد ملك العنصراب . فلما اقترب الأتراك من بلادهم ، تكتل
الشايقية جميعا ، تحت امرة شائوس وصير وكان الأول قائدهم .
يقول وادنجتون : « عندما وصل الباشا التركى الى دنقلة ، أصدر
أوامره الى الشايقية بأن يعلنوا الخضوع لسلطان محمد على ، فأبدوا
اليه الرغبة فى أن ينصرفوا الى زراعتهم وأن يدفعوا له الجزية . فطلب
الباشا أن يثبتوا له حسن نيتهم ، بأن يرسلوا اليه أسلحتهم وخيولهم ،
فأعادوا عليه قولتهم الأولى . فأجابهم الباشا بأن أباه قد أمره أن ينشئ
منهم شعبا من الفلاحين لا شعبا من المحاربين ، وطلب اليهم مرة أخرى
أن يسلموه الأسلحة والخيول .

حينئذ أجابوه فى تحد قائلين : « اما أن تذهب لحال سييلك أو تأتى
فتحاربنا » فسير الباشا جنوده الى حدود بلادهم .
كان أول دماء سفكت فى حلة سلقى حيث قتل الشايقية خمسة من
العساكر الألبانيين .

وبدأت المعركة بمناوشة وقعت قريبا من دنقلة العجوز حيث باغت
فريق من الشايقية الخيالة اسماعيل باشا ، وبعض ضباطه ، وقليل من
الجنود ، الذين كانوا قد انفصلوا عن الجيش الرئيسى . ومع ذلك
استطاعوا أن يصدوا الشايقية دون عناء .

واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن
يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريبا من كورتى . وهنا يروى كايو نقلا عن
عابدين كاشف ثانى قواد الجيش التركى ، أن الشايقية قد مزقوا طليعة
استكشافية تتألف من مائة من فرسان البدو ، فقتلوا منهم سبعين ،
وجرحوا عشرين . وفى هذه البقعة تجمع الجيش الرئيسى للشايقية لصد
الغزاة .

وبالقرب من المكان الذى تقوم فيه حلة كورتى الحالية ، وقعت معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة الشايقية .

وكان فى صفوف الشايقية فتاة ، تدعى مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب ، تركب جملا مزدانا بالحلى والأدوات الفاخرة ، فأعطت إشارة البدء بالقتال بأن أطلقت الزغاريد ، فاندفع فرسان الشايقية يخوضون المعركة فى قوة ومهارة . وكان هجومهم عنيفا جدا حتى ان البدو والمغاربة الذين تألفت منهم طلائع الجيش التركى ، قد ارتدوا وهم مضطربو النظام الى الجيش الرئيسى .

ووافى عابدين كاشف للاقناذ ومعه خياله ، وشد على الشايقية ثلاث مرات سريعة متلاحقة ، حتى كبح جماحهم ، وحتى استطاع البدو والمغاربة أن يلموا شتاتهم ويصدوا للمعركة من جديد . وأصبحت نتيجة المعركة ، فى لحظة من اللحظات ، موضع الشك بالنسبة للطرفين المتحاربين . ولو أتيح للشايقية أن يتخذوا الأسلحة النارية ، ويعرفوا كيف يستخدمونها ، لدارت الدائرة على الأتراك . ولكن الشايقية ، كانوا فى الواقع مسلحين بأشد أنواع السلاح بدائية ، فلدى كل منهم رمحان ، وسيف عريض النصل ، ودرع من جلود وحيد القرن ، وقليل من زعمائهم لبسوا أردية من الزرد ، وملكوا بعض الطبنجات .

عند تلك اللحظة الفاصلة ، أشار اسماعيل باشا الى الجيش الرئيسى فأطلقوا عدة طلقات نارية سريعة ، وكان لها آثار مميتة ، فى حشود الأعداء المتلاصقة .

ولم تعد النتيجة موضع شك ، فقد فر فرسان الشايقية فى هلع ورعب ، أما المشاة منهم ، فقد انبطحوا على وجوههم ، ووضعوا دروعهم على رؤوسهم يتقون بها طلقات العدو ، وابتهلوا اليه أن يرحمهم . وقد انجلت المعركة عن ستمائة قتيل وجريح من الشايقية ، تسعون فى المائة منهم كانوا من المحاربين المشاة .

وكان المشاة في جيش الشايقية يتألفون في معظمهم من النوبيين الذين أسرهم الشايقية في أثناء غاراتهم المتكررة على دنقلة . وقد وقع عدد كبير من هؤلاء المشاة في يد اسماعيل ، فأرسلهم الى قراهم .

لقد حارب الشايقية بشجاعة وجسارة عظيمتين ، وحازوا اعجاب أعدائهم . وقد وصف وادنجتون طريقته في الاقتال فقال : « ان لديهم في الهجوم جراءة نادرة لا نظير لها ، يركبون الى الأعداء ويواجهونهم مواجهة قريبة ، وقلوبهم تهفو الى اللقاء ، في خفة وابتهاج كأنهم ذاهبون الى احتفال أو عيد ، ويعلمو وجوههم السرور كأنهم يلقون أصدقاء اشتد بهم الشوق الى رؤيتهم بعد طول غياب . فاذا واجهوا العدو بادأوه بقولهم : « السلام عليكم » - سلام المنية التي توافي تلك الرياح والتي تعقب هذه التحية مباشرة . وتتوالى الطعنات يعطونها ويأخذونها ، وعلى ألسنتهم تردد ألفاظ الحب والمودة . هذا الازدراء للحياة ، وهذه السخرية بأشد الأشياء اخافة وارهابا ، هو صفة لازمة لهؤلاء القوم - انه الشعب الوحيد الذي يتخذ من الأسلحة لعبا يتلهم بها ، ومن الحرب رياضة محبة الى نفسه . لا يتطلبون من أعدائهم شيئا سوى التسلية ، ولا يخافون من الموت شيئا سوى انه راحة لأبدانهم .

« وفي هذه السبيل أتيح لهم من البواعث ما أكد عندهم ما توارثوه من شجاعة جرت مجرى الفطرة في نفوسهم . فقد عاشوا رفاقا ملازمين لخييلهم ، ورماحهم في أيديهم ، ثم تغيرت حالهم ، فأجبروا على أن يتخلوا عن خييلهم للغرباء ، وأن يستبدلوا برماحهم زحافات لتسوية الأرض المزروعة ، ومقاضب لتشذيب الشجر . وأرغموا على أن يسوقوا الثور حول الساقية بعد أن كانوا يطاردون العدو عبر الصحراء . كان لديهم كثير من النوبيين الذين استوطنوا بلادهم ، واضطروهم الشايقية على أن يقوموا بجميع الأعمال الخاصة برى الأرض وزراعتها ، وكانوا ينظرون الى النوبيين على أنهم دونهم كثيرا في المرتبة . أما الآن فقد

دعوا الى أن يؤدوا بأنفسهم هذه الأعمال التي تعودوا أن ينظروا اليها على أنها أليق بالعبيد والخدم . وصاروا لا يتوقعون من أحد معاملة أحسن مما كانوا قد تعودوا عليه من قبل . لقد قضى عليهم أن ينحدروا الى العبودية دفعة واحدة ، بعد أن كانوا ، ليسوا أحرارا فحسب ، بل طغاة جبارين كذلك .

ويقول كايو ان معظم المشاة في جيش الشايقية كانوا سكارى * ، وأن كثيرا منهم كانوا يلقون بأنفسهم ، في تهور واندفاع ، على بنادق الجنود الأتراك ، وقد حملوا في أيديهم أوعية الشراب المسكر ، وبدت على وجوههم علامات السرور كأنهم يشتركون في احتفال أو عيد . وذكر وادنجتون أن خسائر الأتراك قد أسفرت عن جرح ضابط واحد وستة عشر جنديا . وهذا قد يصدق على الأتراك أنفسهم ، أما عن حلفائهم من البدو والمغاربة فلا بد أن الخسائر بينهم كانت فادحة ، إذ أنهم هم الذين تحملوا معمعان القتال في هجوم الشايقية . وقد قدر كايو عدد القتلى ثلاثين والجرحى ثمانين وربما كان هذا أقرب الى الصحة . بعد انتهاء المعركة ، استسلمت قرى البلاد المحيطة ، للخراب والحرائق ، وارتكب الغزاة صنوفا مروعة من الوحشية والفظاعة ضد الأعداء الذين كانوا قد قاوموهم في شجاعة وبسالة .

وأعلن اسماعيل باشا عن مكافأة قدرها خمسون جنيها لكل من يحضر له أذنين لأي شايقي قتل في الحرب ، حتى يرسل ما يجمعه من الآن المصلحة الى والده محمد على شاهدا على نجاحه الباهر .

وكان من أثر ذلك أن أصبح لا يقف الأمر عند تسليم آذان الذين قتلوا وجرحوا في ساحة القتال ، بل تعدى الى هؤلاء الأبرياء الذين لم يشتركوا

* هل هذا صحيح . فكيف يتفق هذا الكلام مع اقوال الرحالة الآخرين الذين لم يشيروا الى هذه المسألة (المترجم) .

في المعركة ، ولم يلتمسوا ذلك في الرجال وحدهم بل في النساء كذلك .
والذين قاوموا منهم ، كانوا اذا لم يقتلوا فوراً ، تشوه أجسامهم بصورة
منزعة ، أما القتلى والجرحى فقد تركوا راقدين حيث كانوا ، تنهشهم
سباع الطير وتتخذهم طعاما لها .

وفيما يلي نورد فقرة من كلام كايو ، وهي تلقي ضوءاً قاتماً على
ما حدث بعد انتصار الأتراك :

« هرب بعض الشايقية الى أوطانهم ، فأنين أن أعداءهم سيقبضون
على الرجال العزل - ولكن أملهم كان سراباً ، فقد انتشرت الجنود
الثائرة الهائلة كالسيل الجارف ، تجلب معها ، حيث حلت ، الحرائق
والسرقات والمذابح . وحاول الباشا أن يضع حداً لتعدى هؤلاء المجانين
ولكن في غير طائل ، ولا غرو أن كان الباشا مسئولاً عن ذلك ، فهو الذي
دفعهم أول الأمر الى التمدادى في ذلك ، حين أعلن لهم عن مكافأته لكل
من يأتي بأذن الشايقية مصلمة . فاذا كان بعض الأتراك قد دفعتهم
مشاعر انسانية ، فوهبوا الحياة لأحد من هؤلاء التاعسين العاثرى الحظ ،
فلم تبلغ بهم الأريحية قط الى الحد الذي جعلهم يدعون الأذنين ملكاً
لصاحبها . فقد سمعت رجلاً يونانياً ، كان طبيب الباشا ، يفتخر بأنه أهدى
الى أحد الجنود أذن فتاة كان قد وجدها مختبئة في حقل من الذرة ،
ويعلن أنه أبقي على حياتها لأنه شعر نحوها بعاطفة ، وأنه ما كان يشعر
بمثل هذه العاطفة ازاء النساء الأخر اللائي يكبرنها سناً ، ولذلك كان
يذبحهن دون تردد » .

ويؤيد جيوفانى فيناتى * الذى صحب الحملة ، ما رواه كايو من

* جندي إيطالي التحق بالجيش التركي وكان من بين المستشارين الذين
استعان بهم الباشا التركي في تنظيم جيشه . وكان في حاشية إبراهيم باشا
حين زار سنار وفازوغلي ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ،
واعتنق الاسلام وسمى نفسه الحاج محمد (المترجم) .

ملاحظاته ، تأييدا كاملا .

ان الغيظ الذي ملأ نفوس الجنود الأتراك ، لما وجدوه من أعدائهم من المقاومة في شجاعة وبسالة ، ولتعطشهم الى التخریب ، وطمعهم في المكافأة ، قد ساقهم الى الغلو المفزع في التعدي وانتهاك الحرمات .

لذلك لا غرابة في أن لا يقنعوا بانتصار واحد ، وأن يتعادوا ، وهم يحسون بروح معنوية عالية ، في النيل من خصومهم بكل الوسائل الممكنة . وكانت كل الدلائل تنطق في وضوح وجلاء بهذه الحقيقة . يقول كايو : « فان نصف الأهالي الذين التقينا بهم ، وكثير منهم من النساء ، كانوا محرومين اما من احدى الأذنين أو من كليهما ، وكان آخرون منهم قد قطعت أطرافهم . أضف الى ذلك أننا التقينا في طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران » . فالواقع أن الاضطهاد الذي حدث ، كان يقصد فيما يبدو الى الابادة والاقناء . فالمنطقة كلها قد خربت ، وبذلك استحال - في وقتها على الأقل - الى اذعان مكتب عابس .

فبعد موقعة كورتى خضع واحد أو اثنان من صغار المشايخ الذين حكموا على الضفة اليسرى من النهر ، أما سائر الشايقة وجيوشهم فقد عبروا النهر بزعامة الملك شاؤس واجتمعوا عند جبل دجر حيث قرروا القيام بمحاولة عنيفة في سبيل الحرية . قام الجيش التركى ، مصحوبا بأسطول يتألف من حوالى ١٥٠ سفينة ، فعبر الى الضفة اليمنى من كورتى وتقدم تجاه جبل دجر . وكان ذلك في الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٨٢٠ .

واصطفت جنود شاؤس على منحدرات التل ، تحميمهم قصور شاؤس وتحصيناته ، التى وصفها شاهد عيان بأنها كانت تلقى ظللا مظلمة على جانب التل .

كان الموقع الذي اختاره شاؤس مناسباً الى أقصى حد ، ولو لم يكن هنالك فارق بين الجيشين في نوع الأسلحة المستخدمة ، لكان من الجائز أن يضمن هذا الموقع لجنود شاؤس نصراً محققاً .

ولكن الجموع من سكان القرى الذين ساقهم شاؤس الى الميدان أو أغراهم بالاشتراك في الحرب ، لم يكونوا يمتلكون الا الأسلحة والرماح والدروع والسيوف ذوات الحديد . وكانوا في مقدمة الجيش قد تصدوا لرصاص الأتراك يتلقونه ويستنزفونه ، دون أن يقدموا على أية مقاومة ايجابية في لحظة الهجوم .

أقام الباشا جيشه في مواجهة الأعداء ، ووضع القسم الأكبر من خيالاته قبالة الأرض المكشوفة بين الجبل والنهر ، ودفع بمدفعيته قليلاً الى الأمام .

واندفع الأهالي المحاربون الى الأمام وقد رفعوا أصواتهم بصيحات عالية ، ولوحوا برماحهم ، وألقى المشاة بأنفسهم على المدفع ، وما كان في أيديهم سوى الأسلحة التي أشرفوا اليها ، فنسفوا نسفاً .

يقول انجليش ، أحد الضباط الأمريكيين ، وكان قد حارب في المدفعية التركية : « كانت الشجاعة المستميتة التي اتصف بها هؤلاء القرويون التعساء ، تبعث على الدهش . فقد تقدموا أكثر من مرة تجاه فوهات المدافع ، وجرحوا بعض رجال المدفعية وهم يقومون بحشوها بالرصاص . ولكنهم بعد أن أحسوا بآثار قليل من الطلقات النارية ، التي مزقت الخيل والناس أشلاء ، هربوا مذعورين ، تاركين عساكر المشاة وقد داسوهم ، وأخذ فرساننا يقذفونهم بالسيوف يصبونها الى أسفل حتى قتلوا مئات كثيرة منهم وهم يهزون بالفرار .

« وحين أقول : يصبونها الى أسفل ، فذلك لأن السيف الذي استعمله خيالتنا لم يكن يجدى قليلاً ، فقد كان هؤلاء الأعداء من الحنق

والمهارة في استخدام تروسهم بحيث استطاعوا أن يتغادوا كل ضربة صوتت فحوها .

« وقد شاهدت في ميدان القتال تروسا كثيرة فيها ما لا يقل عن عشر فلول أو خمسة عشر من فلول السيوف كل منها ملقى على جثة الميت ، الذي حملها ، والذي كان من الواضح أنه قتل برصاصتين أو ثلاث نفقت الى جسمه .

« وقد أخبرني الجنود أنهم كانوا ، في كثير من الأحيان ، يضطرون الى افراغ قرايبتهم (سلاحهم الناري) ومسدساتهم في جسد رجل واحد قبل أن يسقط على الأرض صريعا .

ويحكى وادنجتون قصة رجل من الشايقية ، أصابته خمس رصاصات ومع ذلك ظل يقاتل ، ويصيح في وجوههم قائلا ان في مقدورهم أن يطلقوا النار ولكن ليس في مقدورهم أن يصيروه بأذى . الى أن تلقى جرحه المميت .

وقد عثرى هذا الاستبسال الخارق ، والحمية العسكرية الى أن فقراً * الشايقية قد أكدوا لجيوشهم أن سلاح الغزاة لن يؤثر في أجسامهم . وكان هؤلاء الفقراء قد زودوا المحاربين بأكوام من التراب المبارك لكي يثروه على أجسامهم فيحدث الأثر المطلوب . ومن ثم تقدموا نحو صفوف أعدائهم الأتراك ، وهم الى حالة المتهلل الراقص أقرب من حالة المحارب المقاتل ، تبدو على وجوههم سيماء الثقة المطلقة بالنفس ، والسخرية المفرطة بالأعداء .

ولكنهم أدركوا ، بعد أن دارت رحى الحرب ، أن تلك التعاويذ التي

* فقرا جمع غير قياسي مفردة فكى (أى فقيه) ومن معانيها في اللهجة السودانية المتعبد أو الزاهد وصاحب التعاويذ والتمايم (المترجم) .

أوصاهم مشايخهم بأن يعتمدوا عليها وأن يثقوا فيها ، قد خدعتهم خدعة كانت السبب في شقائهم وويلاتهم . فأضربوا لفقرائهم شرا ، وعقدوا النية على أن ينتقموا منهم انتقاما مريما . فما كادت تنتهى المرحلة الأولى من المعركة ، حتى قبضوا على أسرة الفقرا كلها ، وهى أسرة الدويحية ، وقتلوه عن آخرهم ، بل خربوا القرية التى كانت هذه الأسرة تقيم فيها ، وهى قرية شبّه ، بالقرب من مروى .

كانت نتيجة هذه المعركة وبالا على الشايقية ، فانكسرت شوكتهم وفنيت الكثرة الساحقة من عساكر المشاة ، أما الخيالة فقد لاذوا بالفرار تحت امرة شائوس ، ولجئوا الى تلال عمّرى .

وواصل الجيش التركى مطاردة الأعداء الى أن بلغوا جبل برقل ، وهم ينهبون ويحرقون ويقتلون كل ما صادفوه في طريقهم ، ويخربون البلاد بعيدها وفسيحها . وكان هذا التخريب الواسع النطاق مخيفا مفرعا . حتى ان الرجال الذين طعنوا في السن ، والصبية الذين كانوا يديرون سواقيهم في سلام وهدوء ، لم يفلتوا من أيديهم ، بل مزقوا أجسامهم في حقولهم ، وتركت مع جثث حيوانهم ، تبلى وفتن في وسط مزارعهم المهجورة .

وقد مرّ وادنجتون خلال هذه الديار ، بعد الذى أحدثه الجيش فيها ، بأساييع قليلة ، ورسم لنا صورة بشعة مفرعة لما أصابها من الخراب والدمار .

وبعد انتهاء الموقعة بوقت قصير ، أعلن الملك صير خضوعه للجيش التركى ، ويعزى هذا الى السبب التالى :

بعد أن دحر الأتراك الشايقية عند جبل دجر ، وقضوا على استحكاماتهم ، حاولت بنت الملك صير ، واسمها « صافية » ، أن

تشق لنفسها سبيل الهرب من أحد قصور والدها ، ف وقعت أسيرة في أيدي فرقة من البدو التابعين لجيش الباشا التركي .

وسرعان ما أحضروها بين يدي الباشا ، أملا في أن يأمر لهم بمكافأة مادية ، فقد كانت « صافية » ، فيما يروى على جانب عظيم من الجمال . ولكن الباشا لم يستغل ما يملكه من حقوق الغزو ، فقد أمر بها أن تلبس فاخر الثياب ، ومنحها كثيرا من الجواهر والحلى ، وحملها على جبل ، ووكل بها حرسا من رجاله الذين يشق بهم ، وردها الى أبيها مكرمة .

ولكن أباه حين رآها مزدانة بحلية تركية ، ومرتدية ثيابا تركية فآخرة ، خطر له أنها أخذت ثمن خياتها ، فرفض أن يستردها . ولكنه لم يلبث أن عرف الحقيقة ، فتلقأها بالترحيب ، وقرر على الفور التسليم لاسماعيل ، لأنه ، كما يقول ، أصبح لا يستطيع أن يحارب رجلا حفظ له عفاف ابنته .

وقد أعلن التسليم مع الملك صير عدد من الأمراء الصغار ، وهؤلاء سمح لهم بالعودة الى قراهم .

أما الملك شائوس ، وكان جنديا صارما عنيدا ، فقد رفض أن يستلم وطلب الهدنة ، وعاد بجيوشه الى قرب شندی .

وعسكر اسماعيل بجيشه في قرية كريمة في خلال شهرى ديسمبر ويناير ، حتى يمنح جيشه شيئا من الراحة ، وبعد العدة من المؤن ووسائل النقل استعدادا لحملته التى عزم على تسييرها الى بربر وسنار . وأخيرا ، فى الحادى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٢١ ، بعد أن جهز جيشه واستكمل معداته ، غبر الى الضفة اليسرى من النهر ، واستبقى قسوة تتألف من ٣٠٠ جندي من المغاربة لحراسة المؤن والأسطول الذى كان يتألف من ١٢٠ سفينة ، واتجه ببقية جيشه الى الشرق . فسار من نوري

الى كيربكاذ ، ومنها مضى عبر الصحراء من طريق جوره ووادي « دم التور » الى الباير الواقعة على النيل في اقليم الرباطاب (وهى الآن تابعة لاقليم بربر) .

اتجه الباشا من الباير الى الجنوب وسار بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل حتى كان في مواجهة شندى ، دون أن تصادفه أية مقاومة ، وفي طريقه أعلن التسليم له الملك نصر الدين ملك بربر، والملك نمر ملك شندى، وجميع الزعماء الصغار التابعين لاقليم بربر .

وفي شندى وجد الملك شأؤس ان الاستمرار في مقاومة الغازى أمر لا طائل تحته ، فعبر النهر في الخامس عشر من شهر مايو ١٨٢١ ، وأعلن خضوعه للباشا هو ومائتان من جنوده .

فلما قبل الباشا هذا التسليم ، تقدم شأؤس اليه راجيا ألا يحرمه هو ورجاله من أسلحتهم وخيلهم ، وأن يأذن لهم في أن يظلوا على جيلتهم التى ولدوا بها ونشأوا عليها ، جنودا محاربين ، وأن يسمح لهم بأن ينخرطوا في سلك الجندية التركية وأن يقاتلوا تحت لوائه .

وقدر الباشا بسالة هؤلاء الجنود التى قاوموا بها جيشه ، فوافقهم على طلبه . ومنذ ذلك الوقت انضم الى جيش الاتراك فرقة تتألف من ١٤٠ شايقيا بقيادة الملك شأؤس العدلانابى الذى عين « بلوك باشى » * .

وقد أثبتت هذه الفرقة الصغيرة دليل الجدارة ، وقدمت عن نفسها فكرة طيبة في الحروب التى شنّها اسماعيل في سنار وكسلا . ولما رجع اسماعيل من حملاته في الجنوب وجد العبدلاب قد قاموا بثورة في أثناء غيابه ، فانتزعت أراضيهم منهم ، ومنح الشايقية هذه الأراضى بصفة دائمة على شريطة أن يظلوا في الخدمة العسكرية .

* أى قائد فرقة من (الباشى بوزق) وهم الفرسان غير النظاميين .

وبهذه الحصنة من الأراضي ، استولى الملك شاؤس وقبيلته العبدلانا على مدينة حلفاية التي كانت من قبل ملكا للعبدلاب . وفي حلفاية الى الآن ، تقطن ذرية شاؤس وقبيلته . ومنذ ذلك الحين يبدأ تاريخ استيطان طائفة كبيرة من الشايقية في مديرية الخرطوم ، والسواراب في « حجر العسل » ، وفي « مديسيه » ووادي بشاره ، والكادقاب في « أبو دوم » و « كوداب » و « ود البصل » .

وهنا ينتهي تاريخ الشايقية بحسبانهم شعبا له كيانه ، واندرج في تاريخ الحكم المصري في السودان . واستمرت هذه القبيلة من المحاربين الباسلين ، الذين أثبت الأتراك نشاطهم الحربي حين كانوا أعداء ، وحين كانوا حلفاء ، تقدم دلائل الولاء للحكومة منذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه الأمير المحارب شاؤس خضوعه في شندى ، الى ذلك اليوم المحتوم من يناير ١٨٨٥ حين سقطت الخرطوم وزال الحكم المصري - بصفة مؤقتة - عن السودان * .

* هذا تعبير غير دقيق ، فيه إيهام ومغالطة . فالذين حكموا السودان في تلك العهود لم يكونوا من المصريين ، ولكنهم كانوا من الأتراك . ولقد حكم الأتراك مصر كما حكموا السودان . وعانى الشعب المصري منهم كما عانى الشعب السوداني سواء بسواء .

والملاحظ أن مؤلف هذا الكتاب يناقض نفسه مناقضة سافرة . ففي صفحاته السابقة ، كان كل حديثه منحصرًا في الأتراك والكشاف والممالك وما صنعوه في السودان . ثم لوى ها هنا زمام القول فجأة ، لهوى في نفسه ، فوصف حكم هؤلاء الأتراك والكشاف بأنه « حكم مصرى » !!

ولم يعد أحد اليوم ، من سكان هذا الوادي ، يجهل أن الحكم في ذلك العهد كان قوامه الأتراك ، وأن الذين دبروا هذا الغزو كانوا هم الأتراك .

وإذا كان للشعب المصري نصيب في تاريخ السودان الحديث ، فهو نصيب الأخوة التي لا يمكن أن تختار أسلوب العنف ، ولا يمكن أن تلجأ الى القوة والسيطرة على الشعب السوداني الشقيق .

لقد كان للشعب المصري آثار سلمية في تاريخ السودان وحضارته من علمية واجتماعية ودينية ولم تكن هذه الآثار قاصرة على العهد التركي وحده بل كانت في جميع العهود التاريخية على سواء . أما الحملات العسكرية التي شنّها الأتراك أو شنها الإنجليز فيما بعد فإن الشعب المصري يرى منها تماما

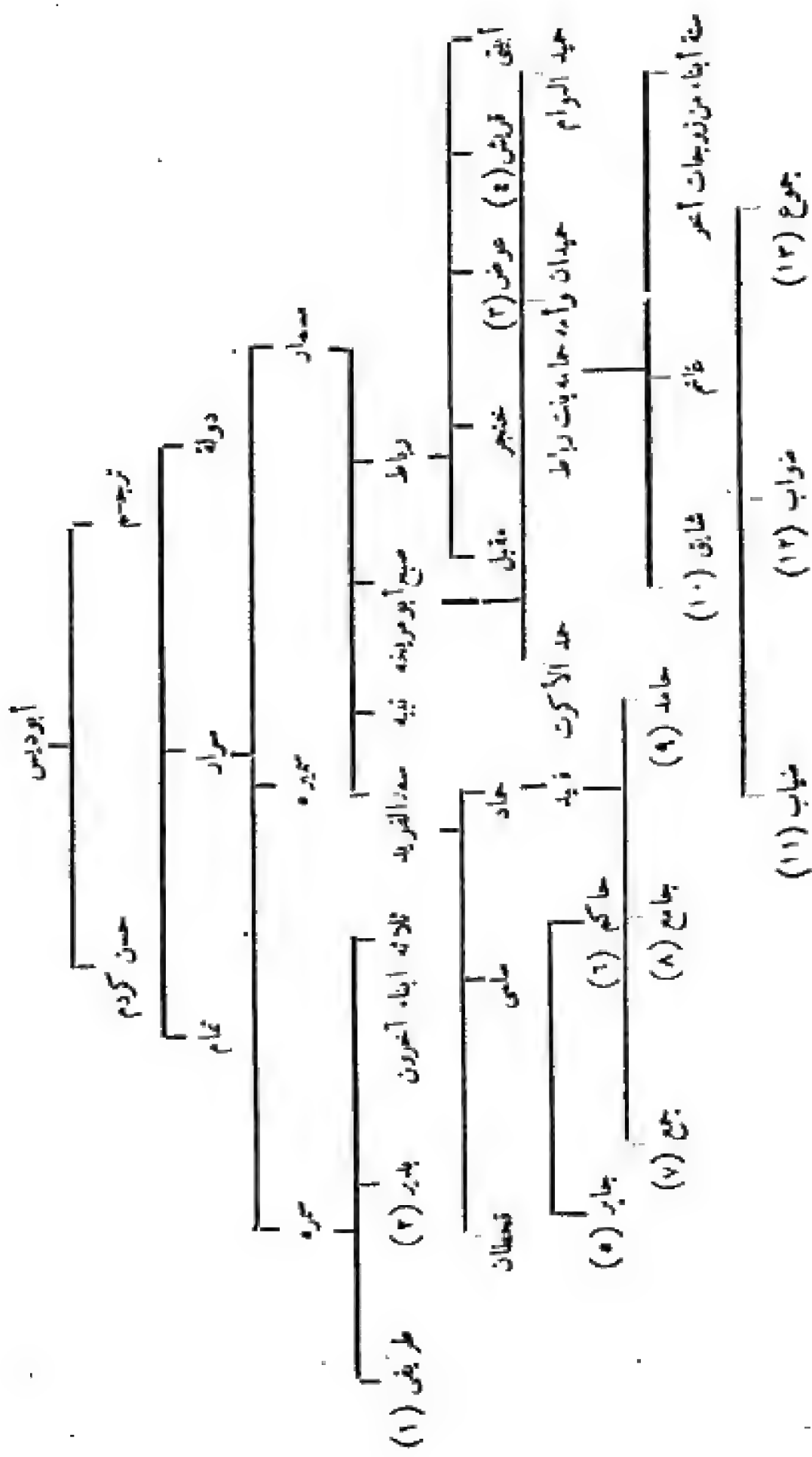
(المترجم)

الملحق الأول

فما يلي جدول مختصر لقبائل الجعليين في السودان ، وهو يبين العلاقات بين الشايقية والقبائل التي تمت اليهم بصلة القربى .
هذه القبائل تسمى « جعلية » نسبة الى جدهم « ابراهيم جعل » وهو من سلالة عبد الله بن عباس الهاشمى . وقد لقب ابراهيم بجعل لأنه كان رجلا كريما مضيافا حتى اشتهر بذلك . *
أما (أبو ديس) الذى نجده على رأس القائمة في هذا الجدول ، فهو ابن قضاة بن عبد الله حرقان بن مسروق بن أحمد اليمنى بن ابراهيم جعل .

ومن الملاحظ ان لفظ « جعليين » لم يطلق في بادىء الأمر على قبيلة بعينها ، بل هو اصطلاح جامع لعدد كبير من القبائل لا تكاد تتصل بصلات وثيقة من القربى ، كما أطلق بصفة رئيسية على الذين سكنوا دقلة وبربر والخرطوم وأقاليم النيل الأبيض . أما اليوم فان اللفظ بوجه عام يستعمل للدلالة على ذرية « ضوابة » .

* تفسر هذا الاسم هو ان ابراهيم كان يقول للاهالى الذين ينضون تحت لوائه (جعلناكم منا) اى انكم أصبحتم منا او جزءا منا لكم ما لنا وعليكم ما علينا . فلما كثر ترديده لهذه العبارة اشتهرت عنه ، فلزمت اسمه المترجم) .



تعليقات على شجرة النسب الواردة في الجدول :

- ١ - هو جد قبيلة الطريفية .
- ٢ - هو جد قبيلة القريشاب .
- ٣ - هو جد قبيلة العوضية .
- ٤ - هو جد قبيلة القريشاب .
- ٥ - هو جد قبائل الجوابرة والجابران .
- ٦ - هو جد قبيلة الحاكماب .
- ٧ - هو جد قبيلة الجُمع .
- ٨ - هو جد قبيلة الجوامعة .
- ٩ - هو جد قبيلتي الحمداه والأحامد .
- ١٠ - هو جد قبيلة الشايقية .
- ١١ - هو جد قبائل الرباطاب والميرقاب والناصراب وعبد الرحماناب
والفاضلاب والسريجاب الخ ..
- ١٢ - هو جد قبائل الشاعديناب والمكابران والزيداب والكتياب
وقبائل أخرى كثيرة لا تحمل اسم (الجعلين) .
- ١٣ - هو جد قبيلتي الجميعاب والجموعية .

الملحق الثاني^١

أبناء شايق وفروع الشايقية

ليس في القوائم التي فحصتها قائمتان تتفقان في نسب أولاد شايق . ومع ذلك فهي تتفق من حيث عدد الأبناء ، وهو اثنا عشر . وتتفق كذلك في أسماء ثمانية منهم وهم : كادقا ، أم سالم ، ناضع ، شلوف ، حواش ، عون ، سوار ، مريس .

واسم الابن التاسع هو عمارة أو قرش .

وأسماء الثلاثة الباقية تختلف على النحو الآتي :

مرزوق ، صلاح ، شربيل .

(١) قائمة الكابتن جاكسون تجعل الأسماء باعوض ، مرس ، شرنكو .

(ب) رواية العمدة محمد علي بليلو عمدة السواراب ، أنهم عدلان (أو صلاح) ومرزوق وحامد .

(ج) رواية الشيخ محمد صالح أبو دوم من قبيلة الكادقاب تجعلهم

كان كادقا هو الابن الأكبر ، ولكن الروايات تختلف بالنسبة الى نظام تتابع الأبناء الباقين ، ولا أحسب أن الموضوع من الأهمية بحيث يستحق منا أن نفحص الروايات المتباينة التي ذكرت في القوائم المختلفة .
١ - كان لكادقا ، جد الكادقاب ، ذرية قوامها ما يلي :

(١) صالح ، جد الحنيكاب ، وقد أقام في أوسلي ، حزيمة ، مساوي ،

١ - اني مدين في المواد التي استقيتها في هذا الملحق للكابتن ١ . س . جاكسون .

القرير ، عمرى (مديرية دقلة) ، شندى (مديرية بربر) ، العيلفون (اقليم الخرطوم) .

ويتفرع الحنيكاب من المصوداب ، والناصراب ، والقوتاب ، والشريشاب ، والحساب ، والشلاليل .

(ب) صلاح (١) جد الصلاحاب الذين يسكنون فى زومة وديبة ومساوى (مديرية دقلة) ، وقوز اليساير (اقليم شندى بمديرية بربر) (٢) وجد الاسوماب الذين يقيمون فى قيسلى (مديرية الخرطوم) . (٣) وجد العدلاناب الذين يستوطنون حلفاية الملوك وأبو حليلة وقيلى (مديرية الخرطوم) .

ويتفرع العدلاناب الى مروى وكجى وأولاد على والمناوراب .
(ج) حامد جد الحامداب الذين يسكنون فى حامداب (مديرية دقلة) وفى كردوفان حيث يعيشون بدوا رحلا .

(د) عبد الدايم (ويعرف أيضا باسم ثلثن) وهو جد التاناب الذين يقيمون فى جزيرة تلناب (مديرية دقلة) .

(هـ) جورم جد الجورماب الذين يعيشون فى تنقى وبرقل (مديرية دقلة) وود البصل (مديرية الخرطوم)

(و) زمام جد الزماماب ، وهم يقيمون فى مروى وبرقل وتنقى (ز) حسين جد الكروساب ، وقيمون فى الكرو (بمديرية دقلة) .

(ح) رعيم جد الرعيمات ، وقيمون فى ود البصل (بمديرية الخرطوم) وكذلك فى مديرية دقلة .

(ط) كوده جد الكوداب ، ويسكنون فى كوداب ، وأبى دوم ، وقوز نفيسه (بمديرية الخرطوم) .

(ي) مرزوق (ويروى كذلك انه ابن شايق) وهو جد المرزوقاب الذين يقيمون فى تنقى وكرو (بمديرية دقلة) .

(ك) شركو جد الشرنكاب والغرياب الذين يقيمون في برقيله
(بمديرية دقله) .

(ل) عيسى جد العيساب الذين يعيشون في نودى والقزيب
(بمديرية دقله) .

وهناك ولدان آخران من أمة سودانية أحدهما (فرج الله) جد
الفرجاب (ويعرفون كذلك باسم الكراكرة) وهم يقيمون في الكرو
وزومه وبرقل وجزيرة التلناب (بمديرية دقله) . والولد الثانى (فرج)
جد الفرجاب الذين يسكنون في كرو (بمديرية دقله) .

٢. أم سالم جدة قبيلة أم سالم التى تقيم في مديرتى النيل الأيض
لبربرية وتجدد النعقوناب الذين يسكنون في مديرية سنار . وذريتها من
الذكور هم :

(٢) بادی جد الباديات الذين يقيمون في زومه (بمديرية دقله) .
(ب) كلشوم جد الكلاشيم الذين يقيمون في زومه (بمديرية دقله) .
(ج) جاده جد الجداب الذين يقيمون في عمرى (بمديرية دقله) .
٣ - نافع جد النافعات الذين يقيمون في مديرية دقله وذريته من
الذكور هم :

(١) غاسين جد الغاسيناب ويسكنون في الخريف والثويم بمديرية
دقله .

د ٩ (ب) سعيد الله بن محمد الضيفلاب ويسكنون في الخخير (بمديرية
دقله) .

ب ١٤ (١) شطوط جد الشطوطاب ويسكنون في مديرية دقله والقطارف
بمديرية كسلا : (وذريته من الذكور هم :

(أ) حاج محمد جد « الحاج مخداب » وقيمون في الجريف
بديرية دقله .

(ح) عمر الجار ، جد البادياب الذين يقيمون في مجل (بمديرية
دقله) .

(ب) علي جد العلياب الذين يقيمون في القرين وكورتى (بمديرية
دقله) .

٥ - حواش جد الحواشاب وقيمون في أبى دوم وتنقى (بمديرية
دقله) ، وكوداب وكدر (بمديرية الخرطوم) ، وبساير (بمديرية
بربر) ونزيرته من المذكورهم .

(أ) مخن جد المجناب في تنقى وأبى دوم (بمديرية دقله) .
(ب) عقرب جد العقرباب في أبى دوم (بمديرية دقله) .
تتبعهم جد العونية الذين يقيمون في قلاص ، وكورتى ، والبرصة ،
وجزيرة جيتى (بمديرية دقله) ، واقليم شندى (بمديرية بربر) .
وتتبعهم من المذكورهم

(أ) الغريباوى جد العونية في جيتى والبرصة (بمديرية دقله) .
(ب) زين الدين جد الحناب في إقليم شندى (بمديرية بربر) .
(ج) دوانه جد الدواناب في إقليم شندى (بمديرية بربر) .

ثم يتبعهم من المذكورين جد السوارى ، أعوى ، قروى ، الشليقة ، وكثيرها عددهم
يسكنون في القرين ، وجزيرة والأراك ، وأصلي ، وكورتى (بمديرية دقله) ،
وصحراء بيوضة ، وحجر العسل ، ومديسيه ووادى بشاره (بمديرية
الغريف) ، وأولاد بغلة ، وأقريش ، وكبوسية (بمديرية بربر) . وأولاده

ستة هم : وصيف وجادات وهما من زوجته الأولى ، ومحمد الله وحسن
تمليك من زوجته الثانية ، وعائيد ونهر من زوجته الثالثة . *

(أ) وصيف جد الكافونقا * والزيتاب والزراقنه من اقليم شندي (بمديرية بربر) وصحراء بيوضه .

(ب) جادات جد المشندل في صحراء بيوضه والقرير (بمديرية دنقله) وحجر العسل ومديسيمه ووادي بشاره (بمديرية الخرطوم) .

(ج) حمد الله جد الحمدلاب في القرير والكثري (بمديرية دنقله) واقليم شندي (بمديرية بربر) والازيرقاب بمديرية الخرطوم .

(د) حسن تمليك جد التمليك في الأراك وكوري وموره ، وتكر (بمديرية دنقله) .

(هـ) عايد جد العايداب من القرير (بمديرية دنقله) ووادي بشاره (بمديرية الخرطوم) وجد العطيتلاب في وادي بشاره (بمديرية الخرطوم) .

(و) نمر جد العنيناب في حزيمة وأبي دوم كشابي ، وأبي كليوات (بمديرية دنقله) وحجر العسل (بمديرية الخرطوم) .

٨ - مريس جد المريساب في مديرية بربر وفي أبي دوم (بمديرية دنقله) وله ولد واحد وهو عليت جد العليتاب في تكر .

٩ - قرش جد القرشاب في اقليم شندي بمديرية بربر ويقال ان أولاده ثلاثة :

(أ) أبو دود جد الأباديد في كريمة ومروي بمديرية دنقله .

(ب) صالح جد الصالحاب في كريمة ومروي بمديرية دنقله .

(ج) أبو ناب جد الأبوناب في كريمة ومروي بمديرية دنقله .

١٠ - عامر جد العامراب في كريمة والكثري وعامري (بمديرية دنقله) . ويروي البعض أنه ابن قرش ، ويروي آخرون أنه ابن عمارة ابن شايق .

١١ - باعوض جد الباعوضاب ويعيشون في عمري وبرقل بمديرية

* يعتقد بعض الشايقية ان الكافونقا هم سكان دنقلا القدماء .

دقله ، ويقال أيضا انه ابن شايق وان ذريته من الذكور هم :

(أ) عجيب جد العجيباب في عمرى وبرقل (بمديرية دقله) .

(ب) على جد القططية في برقل (بمديرية دقله) .

(ج) محمد خير جد الأمناب في الركاييه (بمديرية دقله) .

١٢ - مرس جد المرساب في مورده والأراك بمديرية دقله ، ويروى

أيضا أنه ابن شايق وأن ذريته من الذكور هم :

(أ) أبو الحسن جد الحسناب في الأراك .

(ب) رحمه جد الرحاب في الأراك .

١٣ - شرنكو ويروى أيضا أنه ابن شايق وأنه توفي ولم يعقب .

ويعد السواراب والكادقاب ، بلا جدال ، أكثر قبائل الشايقية عددا وأعظمها أهمية . وكان العونية فيما سبق قبيلة قوية ، ولكن منازعاتها المستمرة مع القيلتين السابقتين ، أدت الى تشتتها ونقص عددها وثروتها . والسبب في تلك المنازعات هو أن شايق - فيما يروى - سافر مرة الى دارفور وقدم هدية من الخيل للسلطان تنقار سلطان جبل حريس . فسر بها السلطان كثيرا ، وأكرم وفادة شايق وعامله في بلاطه معاملة الملوك لمدة عام وزوجه من إحدى بناته .

وولد شايق من ابنة السلطان ولدا سماه سوارا . ولما عزم شايق على الرحيل من بلاط السلطان ، ترك زوجته وولده في كنف السلطان ، ووعد به بأنه سيعود اليهما ليأخذهما معه الى دقله حالما يهيىء لهما مكانا فيها . ورجع شايق الى دقله ولكنه لم يستطع العودة الى دارفور . فلما حضرته الوفاة ، دعا بابنه الأكبر ، وأخذ منه عهدا بأن يذهب الى دارفور ويبحث عن سوار وأمه ويحضرهما الى دقله . وسافر كادقا الى دارفور ، فوجد السلطان « تنقار » قد مات ، وكان خليفته على السلطنة معاديا للشايقية ، فلم يتمكن من البحث عنهما علانية . وحدث ذات يوم ، بينما كان

كادتقا جالسا في سوق قرية مجاورة لجبل جريس وكان يأكل بلحا ، أن
احتشد جمع من الصبية حوله وأخذوا يتظلمون اليه . فجعل يتسلى بالقاء
حبات من البلح الى الصبية ، ومراقبتهم وهم يندافعون بالمناكب ويتخاطفون
البلح . ولاحظ كادتقا أن صبيا منهم قد وقف بعيدا لا يصنع صنيعهم ،
فدعاه وسأله لماذا لم يشارك رفاقه هذا اللهو . فأجابه الصبي بأنه غريب
عنهم ، ولهذا لم يدخل معهم في ذلك اللهو . فاهتم كادتقا بأمر هذا الصبي
وجعل يسأله حتى استيقن انه سوار . وحينئذ أخذ يعد العدة سرا لا بلاغ
أمه الخبر ، ثم السفر بهما الى دقله .

ولما كان كادتقا قد أظهر ازاء هذا الصبي رعاية وعظما ، فقد أوغر
هذا التصرف قلب بقية أبناء شايق ، عون وحواش ، فتآمرا عليه ،
واختطفوا الصبي وأمه وباعاهما بيع الرقيق الى قبيلة عربية تقطن بجوار
كورسكو .

قلم يكذ كادتقا يسمع هذا الخبر ، حتى اقتفى آثار القبيلة التي
اشتريت سوارا وأمه . واشتراهما منها وعاد بهما .

أما الصبي سوار فهو جد السواراب ، ولهذا السبب نجم نزاع مرير
بين السواراب والعونية ، واستمر الى العصور الحديثة . وقد قاسى
العونية من جراء هذه المنازعات الشيء الكثير .

الملحق الثالث

((دنقاه في سنة ١٦٩٨ كما وصفها م . بونسيه))

. لنقل النبذة التالية من التمهيد الذي قدمته الترجمة الانجليزية
لوحسلات بونسيه ، وهي مطبوعة في لندن في سنة ١٧٠٩ . « مسيو
بونسيه طبيب ماهر عاش في القاهرة . عاصمة مصر : ومن التسواهد
الواضحة الدالة على قدرته ومهارته في فنه أن امبراطور الحبشة ، حين
أصابه مرض عضال كان يهدد حياته : قد اقنع بأنه أمير طبيب يمكن أن
يتولى علاجه » .

سافر بونسيه من القاهرة في ١٠ يولية ١٦٩٨ ، يصحبه « حاج علي »
أحد ضباط امبراطور الحبشة ، والأب تشارلز فرانسيس اكسافيريوس
دي بريفيدنت أحد المبشرين اليسوعيين . وقد سافر من طريق منفلوط ،
وابناه ، وحلاوى ، وشيب ، وسليمه .

يقول بونسيه نفسه : « في السادس والعشرين من أكتوبر ١٦٩٨
وصلنا الى « مشو » وهي ميناء طيبة فسيحة تقع على الضفة الغربية من نهر
النيل . وفي هذه البقعة ، يؤلف النهر جزيرتين^١ متصلتين بالنخيل وأشجار
البنياوكى والحنظل . وتقع مشو في ولاية الفونج ، ومشو هذه هي المكان
الموجيد المعمور بين هذه البقعة وحلاوى . وولاية الفونج هذه تابعة
لملك سنار وهي أول بلاد البرابرة . ولما عرف الارباب ، وهو لقب حاكم
هذه الولاية ، أن امبراطور الحبشة قد أرسل في طلبنا ، دعانا للذهاب الى
ارجوس^٢ حيث يقيم . وتشرف هذه القصبة في مواجهة مشو على الجانب

١ - هما ارتيقاشا وبولينارتى .

٢ - هي ارجوساب وفيها يقيم نسل امراء ارجو الى يومنا هذا .

الآخر من النيل ، وقد اتقلنا اليها فى قارب . وتلقانا الحاكم بترحاب بالغ ، وأكرم وفادتنا يومين كانا راحة ومتعة لنا بعد أن كنا قد قاسينا متاعب جمة فى رحلتنا . وفى أرجوس أيضا يسكن شيخ الجبابة وهو ابن ملك دنقله .

« ولا يظهر هذا الشيخ أمام الناس الا وهو ممتط ظهر جواده ، وقد تغطى الجواد بمائتين من الأجراس النحاسية الصغيرة التى كانت تحدث مع الحركة صلصلة شديدة ، ويلحق به اثنا عشر فارسا ومائتا جندي مسلحين بالحراب والسيوف . وقد زارنا فى خيامنا ، حيث قدمت له القهوة وأدى اليه الناس العوائد ، وهى عبارة عن صابون وأقمشة من الكتان . وشرفنا بدعوتنا ، فى اليوم التالى ، لتناول العشاء عنده . فذهبنا فى الموعد المضروب . فرأينا قصرا فسيح الأرجاء مبنيا بالآجر . له جدران عالية جدا ، تحدى به ، على مسافات معينة ، قلاع شامخة خالية من المنافذ ، ذلك أن هذه البلاد لا تستخدم المدافع وانما تستخدم البنادق .

« بعد أن قضينا ثمانية أيام فى مشوارنا غادرناها فى الرابع من نوفمبر ، ووصلنا فى الثالث عشر من الشهر نفسه الى دنقله^١ . وكل البلاد التى مررتا بها فى طريقنا الى دنقله ، بل التى تقع كذلك على طول الطريق الى سينار ، هى بلاد ممتعة للغاية ، ولكن لا يتجاوز اتساعها ثلاثة أميال (فرسخ) . أما ما وراء هذه المنطقة فصحارى موحشة . وينحدر النيل فى خلال هذا السهل الممتع ، له ضفاف عاليات بارزات . ومن ثم لم يكن الفيضان فى هذه التربة هو الذى يجلب الخصب والنماء ، كما يحدث فى مصر ، وانما هو الصناعة والأعمال التى يقوم بها الأهالى . ولما كانت الأمطار تهطل نادرا فى هذه المنطقة ، فقد عنى الأهالى بالسواقى التى

تديرها الثيران ^١ ، لاستخراج مقادير هائلة من الماء تجري في قنوات واسعة في خلال أراضيهم ، يصنعونها لهذا الغرض . ثم يأخذون منها حاجتهم حين تواتى الفرصة لرى أراضيهم . ولولا هذه الطريقة ، لاستحالت أرضهم قاحلة جرداء .

« والفضة ، في ميدان التجارة ، لا قيمة لها في هذه البلاد . فالمعاملة قائمة على تبادل السلع كما كانت الحال في العصور البدائية . فالمسافرون يهايضون بالفلفل والينسون وحبّة البركة والقرنفل والفراء المصبوغة بالزرقة والعمطور الفرنسية والمحلب المصرى ونحو ذلك مما يحتاجون اليه . وهم لا يأكلون من الخبز الا ما صنع من الذرة ، ويصنعون منها نوعا من الجعة الخائرة لها طعم ردىء للغاية ^٢ . ولما كانت عرضة للفساد اذا طال بها الزمن ، اضطروا أن يصنعوها طازجة في كل ساعة . والرجل الذى يمتلك شيئا من خبز الذرة ، وقرعة ملأى بهذا الشراب الكريه الذى يشربونه حتى يلعب برؤوسهم ، انما يعد نفسه سعيدا يجلب لنفسه طريا عظيما .

وبهذا الغذاء الضئيل ، يتمتع الناس هنا بصحة جيدة ، بل هم أكثر عافية وأشد قوة من الأوربيين .

« وبيوتهم من الطين ، سطوحها واطئة مغطاة بقصب الذرة ، أما خيولهم فهي حسنة المنظر للغاية ، ومناسبة جدا للركوب .
« وللخيل سرّج مرتفعة جدا في مقدمتها ومؤخرتها جميعا ، وهي تعب الحصان كثيرا .

« والشخصيات البارزة ، حاسرو الرؤوس ، وشعرهم مجدول في

١ - كثيرا ما سمعت في دنقله ، أن السواقى ادخلها الاتراك هناك في أيام الغزو (١٨٢١) ولكن هذا النص يدل على مدى خطأ هذه الرواية .

٢ - المريسة وتسمى عند أهل دنقله مرسىكى .

هيئة جسنة . وكل ما يلبسونه يتألف من نوع من الثياب الرديئة
لا أكمام له . وسيقانهم عارية . ولا يلبسون في أقدامهم الا نعلا مجردة
ومثبتة بأربطة .

« وغامة الناس يلقون أنفسهم بثوب من الكتان ، يردونه بمائة
طريقة مختلفة . والأطفال عراة غالبا .

« والناس جميعا يمتلكون الحراب ويحملونها معهم دائما . ولها في
أطرافها سنان تشبه الصناير . وبعضها مشقوق للغاية . والذين يحملونها
منهم السيوف يتكبرونها . والأيمان واللعنات شائعة جدا بين هؤلاء القوم
الجهلاء . وهم الى ذلك قوم غاؤون ليس لديهم شيء من التواضع
ولا المجاملة ولا الدين . وبالرغم من أنهم يعتقدون الاسلام في الوقت
الحاضر ، فانهم لا يعرفون منه الا مجرد مراسم شكلية يرددونها في كل
مناسبة . ومما يستدعى الأسى حقا ، ومما هاج الدموع في عيني صديقي
العزيز الأب بريفيدنت ، أن هذه البلاد منذ وقت غير قصير كانت بلادا
مسيحية ، وأنها لم تختف المسيحية الا لحاجتها الى رجل كان من العبرة
والحماس بحيث يكرس نفسه للتبشير في تلك البلاد المهجورة * .

« وفي طريقنا عثرنا على عدد كبير من الصوامع والكنائس ، المخربة
نصف تخريب . وقد قمنا برحلات قصيرة من مشو الى دقله حتى نتعش
ثعومنا بعد أن كابدنا تلك الرحلات الطوال التي مررنا فيها خلال
الصحارى .

« وقد نقص عدد سكان هذه البلاد بتأثير الوباء الذي وقع منذ
فترة لا تتجاوز سنتين .

* لا حاجة بنا الى القول بأن (بونسيه) يتكلم بوجهة نظره الخاصة .
وهو ، كما لا يخفى ، طبيب مسيحي مبشر ينتمي الى الطائفة اليسوعية
(المترجم)

« وكان هذا الوباء عنيفاً جداً في القاهرة في سنة ١٦٩٦ عندما كنت
هناك ، حيث قدمت نفسي لخدمة المصابين ، وقد أكدوا لي أن الناس
كانوا يموتون يوماً حتى بلغ عدد الموتى عشرة آلاف .
« وقد وقعت هذه الكارثة المفزعة في مصر العليا كلها وفي بلاد
البرابرة . حتى أننا وجدنا عدة مدن ، وعددا كبيرا من القرى خالية من
السكان ، كما وجدنا مديريات شاسعة ، كانت يوماً ما غنية خصبة ، قد
أُتلفت اتلافاً ، وصارت خراباً بلقماً ١ .

« ولم تكد تلوح مدينة دققله أمام أعيننا ، حتى تركنا قائد القافلة
وبادر الى استئذان الملك في أن يسمح له ولرفاقه بالدخول في المدينة . فاذن
عن طيب خاطر . وكنا حينئذ في قرية تعد ضاحية لمدينة دققله ، فعبرنا النهر
في قارب كبير أعده الأمير ليستخدمه العامة . وكل البضائع التي تنقل
يؤخذ عنها رسوم ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئاً . وتقع مدينة دققله
على الضفة الشرقية من النيل ، فوق منحدر تلٍ رملي مجذب . وبيوتها
مبنية بناء رديئاً ، وطرقاتها شبه مهجورة ، معرضة للفيضان يأتيها من
البحر . وقصر الملك في وسط المدينة تماماً . وهو قصر كبير فسيح ،
ولكن تحصيناته ضعيفة لا يعتد بها . وهو مبعث رهبة في نفوس العرب
الذين هم سادة هذه المنطقة حيث منحت لهم الحرية في أن ترعى ماشيتهم
في أرضها على أن يدفعوا جزية ضئيلة للملك ، ملك دققله .

« وكان لنا الشرف في أن نأكل مع هذا الأمير عدة مرات ، ولكن
كانت مائدتنا مستقلة . وعندما سمح لنا بالزيارة الأولى ، كان يرتدى
مهماً من القطيفة الخضراء سابغاً الى الأرض . وله حراس متعددون .
فالذين يلازمونه يحملون سيوفاً طويلة في أعمادها . أما الجرس الخارجي

فيحملون أنصاف رماح . وقد زارنا هذا الأمير في خيمتنا ، ولما كنت قد عالجته ببعض الأدوية فأنمر فيه العلاج ، دعانا للنزول في ضيافته ، في البلاط ، ولكن لم يكد يعرف ارتباطنا بامبراطور الحبشة ، حتى تسامح فلم يجبرنا على البقاء . والملك وراثي ، وهو يؤدي الجزية لملك سنار . « رحلنا من دقله في السادس من يناير سنة ١٦٩٩ ، وبعد أربعة أيام دخلنا مملكة سنار . وقد استقبلنا الأرباب إبراهيم على الحدود ، وهو أخو وزير الملك الأول . وكان استقباله كريما ، وقام بالنفقات الى أن وصلنا الى كورتى وهى بقعة طيبة على النيل حيث كان في صحبتنا . وقد بلغناها في الثالث عشر من يناير .

« ولما كان الأهالى الذين يقيمون عبر مدينة كورتى ، على نهر النيل^١ قد أعلنوا الثورة على ملك سنار ونهبوا القوافل التى تمر خلال بلادهم ، اضطرت القوافل الى أن تشق طريقها بعيدا عن ضفاف النهر ، وأن تتجه في مسيرها بين الجنوب والغرب^٢ لتخترق صحراء بيوضة الكبرى التى يستغرق اجتيازها ما لا يقل عن خمسة أيام مهما يتخذوا من السرعة . وهذه الصحراء ليست موحشة كصحراء ليبيا حيث لا يجد المرء فيها الا الرمال . ففى صحراء بيوضة يلتقى المسافر من حين لآخر بالحشائش والشجر . وبعد أن عبرنا الصحراء التقينا مرة أخرى بالنيل عندالضريبة^٣ وهى قرية هامة ، حيث استرحنا بها يومين . وهذه بلاد وافرة الخصب . ومن المحتمل أن وفرة خصوبتها هى التى جعلت السكان يطلقون عليها اسم « بلاد الله » .

« وغادرنا البلاد في السادس والعشرين ، وانعطفنا جهة الغرب . ولم

١ - يعنى الشايقية .

٢ - ينبغى أن يكون الشرق بدلا من الغرب .

٣ - في مديرية بربر ، باقليم شندي .

نجد في طريقنا أثرا لقرية ما ، ولكن السكان الذين يقيمون في خيام ، يمدون المسافرين بما يحتاجون اليه . وبعد مضي بضعة أيام في رحلتنا ، التقينا بالنيل مرة أخرى قريبا من قرى . وهناك يسكن أحد الحكام ٤ ، ومهمته الرئيسية هي فحص ما اذا كان في القوافل التي ترد من مصر أى شخص مصاب بالجدرى لأن هذا المرض ليس أقل خطورة ولا أقل تدميرا في تلك البلاد من الطاعون .

« وقد أظهر هذا الحاكم نحونا مجاملة خاصة ، تقديرا لعرش الحبشة كما تدل على ذلك عباراتهم عندما كانوا يذكرون ذلك الامبراطور . وقد أعفانا من الحجز في المحجر الصحى الذى كانوا يتخذونه عادة في ذلك المكان الذى هو معبر للمسافرين في النيل » .

٣ - في الكوداب ، وهى في مواجهة قرى ، وتقع عند الشلال الخامس .
٤ - أحد شيوخ العبدلاب .

محتويات الكتاب

صفحة

٦ - ٣

٨ - ٧

١٥ - ٩

٢٠ - ١٦

٣٦ - ٣١

٢٠ - ٢٧

٤٤ - ٣١

مقدمة المترجم

مقدمة المؤلف

الفصل الأول : سقوط المماليك النوبية وقيام الفونج

الفصل الثاني : انحلال قوة الفونج في دقله

الفصل الثالث : نهضة الشايقية

الفصل الرابع : المماليك

الفصل الخامس : الغزو التركي

ملاحق :

٤٧ - ٤٥

٥٤ - ٤٨

٦١ - ٥٥

١ - القبائل الجعلية (جدول بأسمائها)

٢ - أبناء شايق وفروع الشايقية

٣ - دقله في سنة ١٦٩٨ كما وصفها بونسيه

مراجع البحث

1. تاريخ السودان لنعوم شقير
2. ابن بطوطة — رحلته
3. مخطوطات عربية عن تاريخ السودان المختصر.
4. Browne, W. G. — Travels in Africa, Egypt, and Syria, 1792 — 8 (London 1799).
5. Bruce, J. — Travels to discover the Source of the Nile, 1768 - 73 (London, 1805).
6. Budge, W. — The Egyptian Sudan.
7. Bruckhardt, J. L. — Travels in Nubia. (London 1819).
8. Cailliaud — Voyage a Meroe.
9. English, G. B. — Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under Ismael Pasha. (Boston 1823).
10. Lane—Poole. — A History of Egypt in the Middle Ages.
11. Lepsius — Nubische Grammtik.
12. Poncet — Journey to Eethiopia.
13. Quatremere — Memoires Historiques sur l' Egypte.
14. Russel — Nubia and Abyssinia.
15. Waddington and Hanbury, — Travels in Ethiopia.

